مكتبتنا العربية

مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية تحكمية

تصدرها مشيخة الأزهر

في كل شهر عربي

ماعدا شهري ذي القعدة وذي الحجة

الجزء الثامن	٤٧ شعبان سنة ١٣٦٣	المجلد الخامس عشر

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الإدارة

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراكات عن سنة

داخل القطر ... ... ٢٠٠ مم

لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ... ١٠٠

خارج القطر ٣٠٠

ثمن الجزء الواحد ٢٠ مليما داخل القطر و ٣٠ خارجه

(مطبعة الأزهر — ١٩٤٤)

مكتبتنا العربية

فهرس

الجزء الثامن — المجلد الخامس عشر

الموضـــوع			صفحة
الدروس الدينية ـ الدرس الأول ...	بقـلم	حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام	٣٦٩
السيرة المحمدية	«	حضرة الأستاذ مدير المجلة	٣٧٧
السـنة ـ منهج النبى (صلعم) فى العبادة	«	فضيلة الاستاذ الشيخ طه الساكت	٤٨١
خالد بن الوليد	«	« « صادق عرجون	٣٨٥
المدخل إلى دراسة الفلسفة الاسلامية	«	« « محمد يوسف موسى	٣٨٩
الموجة الاولى ـ الـكفر والإيمان	«	حضرة الدكتور أحمد الأهوانى ...	٣٩٤
النحت فى كلام العرب	«	فضـيلة الأستاذ محمد على النجار ...	٣٩٨
علوم القرآن	«	« « حسن حسين ...	٤٠٣
عرس فى بيت النبوة	«	« « أحمد الشرباصى ...	٤٠٧
الأطوار الفنية	«	« « سليمان الأغانى ...	٤١١
تحقيقات أدبية ـ مالك بن الريب ...	«	« « على محمد حسن ...	٤١٤

مكتبتنا العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

الدروس الدينية

الدرس الاول

قال عز من قائل :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ، إن الله نعمّا يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا ، يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » .

ليس فى استطاعة البشر ـ مهما جهدوا ـ إحصاء مافى الأسلام من حسنات وما انطوى عليه من جمال ، ولا الإحاطة بمدى أسرار ذلك النور الذى أنزله الله هدى ورحمة للناس .

ولكن فات الناس اليوم إدراكها واستقصاؤها فسيبين العلماء على توالى القرون ومر السنين للناس من أمرها الشىء بعد الشىء ، وسيكشف العلم وقواعد الاجتماع عنها الشىء بعد الشىء ، وإذ ذاك يدرك العالم بهاء الاسلام وما أعدّه من نظم سعدت بأتباعها أولى الجماعات الاسلامية ، وهو كفيل بأسعاد أخراها كما سعدت أولاها ، وهو كفيل باسعاد البشر أجمع إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، ويأذن الله بأن تبدل الأرض غير الأرض والسموات .

قرر الإسلام فى العقائد ما هو الحق فى ذاته وما شهدت عليه كتب الكون ، وطهر العقيدة فى الله بالتوحيد الخالص فى الألوهية والربوبية وإبعاد الوسطاء بين العبد وربه ، فكل الناس ـ متى خلصت له أعمالهم ـ أمام بابه سواء .

وقرر من العبادات ما هو مذكر به ، وما هو رياضة للنفس ورياضة للجسم ، وما فيه نفع الجماعة الأنسانية ، وأشعر العباد بأنها ليست تكاليف فحسب وإنما هى علاج لأمراض المجتمع إذا مرض ، ومكسبة للمناعة من الأمراض إذا صح ، يرشد إلى هذا قول الله عز وجل :

مكتبتنا العربية

« ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غنى عن العالمين » ، وقوله عليه السلام : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

فالعقائد ليست إلا تقريرا للحق الثابت ، والعبادات ليست إلا علاجا للبشر .

وقرر فى نظام الجماعة ماسوى به بين الناس ، فليس فى الاسلام أن تفضل أمة أمة ، ولاعنصر عنصرا ، وليس فى الاسلام جماعة مختارة دون جماعة .

فما الحسب والنسب ، وما كرم المولد والموطن ، وما كثرة العشيرة وكثرة المال موازين للتفاضل بين الناس « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

وعنه عليه السلام «الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى». بهذا أشعر الانسان بعزته ، وفتح له أبواب الأمل ، ووصله بالعالم العلوى يستمد منه القوة ، ويستمد منه النور ، ويصل بجده واجتهاده الى ما هو مستعد له ، ويصل بالطاعة الى منازل المقربين والصديقين .

أما النظم الأخرى وراء هذا ، فمن الواضح أنها نظم لبقاء النوع الانسانى سليما من الأمراض ، قريبا من السعادة ، بعيدا عن الضغائن والأحقاد ، بعيدا عن الفساد ليؤدى الانسان ما هيىء له من الخلافة فى الأرض التى أنشأه منها واستعمره فيها .

ومن الخير للناس أن يتدبروا هذا ، وأن يتقبلوا النظام الاسلامى على أنه الدواء الذى يصفه الطبيب الحاذق الماهر المحب لقصاده وطلابه ، لا التكليف الذى لا يقبل إلا خوف العذاب ورجاء الثواب .

ونظام الاسلام إذا قبل على هذا الوجه ، وعلى أنه محصل للثواب ومبعد للعقاب ، خفّ على النفس وأحبته وأقبلت عليه إقبال المريض على الدواء ، وحرصت على أن تؤديه كاملا ، وأن تراعى الأمانة فيه ، فلا تتطلب الحيل للإفلات منه ، ولا تعامله معاملة الرسوم المفروضة التى تؤدى كيفما اتفق .

ومما أفاده الناس من الاسلام أصلان عظيمان ، عليهما تبنى عزة الأمم والأفراد ، وبهما ينال كل مجد ثمرة جده ، وكل عامل ثمرة عمله ، ويصل كل ذى حق الى حقه ، وبهما تسعد النفوس وتطمئن القلوب .

هذان الأصلان هما : الالتزام بأداء الأمانة ، والالتزام بالعدل ، اللذان اشتملت عليهما هذه الآية الكريمة « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

مكتبتنا العربية

أفراد النوع الانسانى بعضهم فى حاجة الى بعض يتبادلون الأملاك والثمرات ومنافع الأعمال، ولا يستقيم أمر المعاملات والمعاوضات إلا إذا كانت الأمانة ملاكها وحاكمة عليها ، قادة ومقودين سادة وعبيدا ، رؤساء ومرءوسين ، خاصة وعامة .

ويطرأ الفساد على المجتمع بقدر ما تضعف الأمانة ويضعف سلطانها على النفوس ، وإذا فقدت اختل النظام وفسد أمر الجماعة ، وقد يؤدى ذلك الى الفناء .

ومن الطبيعى فى النوع الانسانى أن يحصل الاختلاف والتنازع عن عقيدة أوغير عقيدة ؛ فهو فى حاجة الى حكومة تقوم برجال يلون الأعمال من جند وحفظة ، يضربون على أيدى السفهاء، ويحافظون على الأنفس والأعراض والأموال، ورجال يهذبون الأمة ويبصرونها بمختلف ألوان الحياة ومختلف العلوم والفنون ، ورجال يقومون على حفظ الدين وبيانه للناس ، ورجال يضعون النظم الصالحة للأمة فى العصور المختلفة ، ورجال يفصلون فى الخصومات ، ورجال يجبون الزكاة والخراج ، ورجال ينفقون أموال الأمة فى وجوه البر والخير ومرافق الحياة . كل هذه الأعمال فى حاجة الى الأمانة وفى حاجة الى العدل .

فالأمانة والعدل دعامتان يقوم عليهما بناء المجتمع ، ولا تسعد أمة من الأمم إلا بهما ، ولا تنال الكرامة إلا بهما ، وإذا فقدتا من أمة فقدت كل شىء وكانت كالجسم لاروح له ، وفرقتها الأحداث وعمها الشقاء .

والأمانة اسم للشىء الذى تؤتمن عليه مع الاطمئنان الى الوفاء وعدم الخوف ، يقال ائتمن فلانا عده أمينا أو اتخذه أمينا . وكما تكون الأمانة بعقد قولى تكون بكل مايدل على الائتمان من قول أو عمل أو عرف أو قانون ، يدل على ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة » .

والمعترف بدين من الأديان تحمل أمانة ذلك الدين بمجرد الاعتراف به ، وكل شىء يؤديه مما يطلب ذلك الدين فهو أمانة أداها ، وكل شىء يتركه منه خان الأمانة فيه ، والمقيم فى قطر له قوانين لاتخالف قواعد الاسلام احتمل أمانة تلك القوانين ووجب عليه أداؤها ، وكل عضو فى الجماعة الانسانية يعيش بينها ، وفى الوسط الذى يعيش فيه عرف وعادات لا تخالف شريعة الاسلام عليه أن يؤدى للجماعة ما تواضعت عليه ، ويعتبر ما تواضعت عليه أمانة عنده .

فالأمانة حق عند شخص لنفسه أو لغيره أودع عنده بعقد أو بغير عقد ليقوم بوفائه . فالمال المودع أمانة ، والدين أمانة ، والقانون أمانة ، والآداب العامة أمانة ، والعلم أمانة ، كل ذلك يجب الوفاء به لقوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » . قال الامام الرازى : « الأمانة ثلاثة أقسام : أمانة العبد مع ربه ، وأمانة العبد مع الناس ، وأمانة الانسان لنفسه ؛ فأمانة العبد مع الله هى ما عهد اليه حفظه والقيام به من استعمال مشاعره وجوارحه فيما ينفعه ويقربه الى الله ومن القيام بما أمره واجتناب مانهاه عنه .

مكتبتنا العربية

فاللسان لا يستعمل فى محرم من كذب وغيبة وخديعة ونميمة وكفر وبدعة وفحش . والعين لاتنظر الى محرم . والسمع لايصغى الى الكذب والفحش . وهكذا الحال فى جميع المشاعر وجميع الأعضاء يجب أن تستعمل فى الحلال وما أباحه الله ، وألا تستعمل فى محرم نهى الله عنه . والأمانة مع العباد رد الودائع وأداء الديون وترك الغش وعدم التطفيف فى الكيل والوزن ، وستر عيوب الناس ، وستر أسرارهم ، وترك الأضرار بهم ، وعدم الأيذاء بالهمز واللمز .

ومن الأمانة للعباد عدل الحكام وإنصافهم للناس ، وقيام العلماء بنشر العلم والدعوة الى الله وتعليم الناس دينهم الحق على طريقة تدعو الى الوحدة وتبعد عن التفريق .

وأمانة الانسان لنفسه أن يختار لها ما هو أنفع وأحكم فى الدين والدنيا من علم نافع ، وكسب طيب ، وعبادة تقرب الى الله وتبعد من سخطه وغضبه .

وقد عظم الله أمر الأمانة فى مواضع كثيرة من كتابه ، وشنع على الخيانة فى مواضع كثيرة من كتابه : « يأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم » ، وجعلها من خصائص المؤمن فقال : «والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون» ، وقال عليه السلام : « لا إيمان لمن لا أمانة له » ، وقال : « ثلاث يؤدين الى البر والفجر : الأمانة ، والعهد ، وصلة الرحم » وقال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان :

وقال : « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صلى وصام وحج واعتمر وقال إنى مسلم : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » .

وقال : « لن تزال أمتى على الفطرة مالم يتخذوا الأمانة مغنما والزكاة مغرما » :

أما العدل فهو تحرى المساواة والمماثلة بين الخصمين . والمادة فى جميع تصاريفها تدل على المساواة . وقد ورد فى العدل آيات كثيرة وأحاديث كثيرة « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق » ، « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى » « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

وقال عليه السلام : « لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت ، وإذا حكمت عدلت ، وإذا استرحمت رحمت » .

فالقيام بالقسط وأداء الأمانة شعار الجماعة التى يحبها الله وهو الغاية من التكاليف . ولم يجعلهم أمة وسطا شهداء على الناس ولم يجعلهم خير أمة أخرجت للناس إلا بعقائدهم الطاهرة وعباداتهم الخالصة وأخلاقهم القويمة وأمانتهم وعدلهم . والحكم بالعدل وظيفة الامام الأعظم ونوابه على الطريقة التى يرسمها . وحق الامام فى الحكم مستفاد من الأمة ، وحق الولاة والوالى مستفاد منه ، وقد تستفاد ولاية الحكم برضا الخصوم وهو التحكيم .

مكتبتنا العربية

وبعد أن أمر الله بأداء الأمانة وبالحكم بالعدل قال : إن الله نعما يعظكم به، إن الله كان سميعا بصيرا » يعنى نعم الشيء الذى يعظكم به ذلك الشيء الذى أمركم به وهو أداء الأمانة والحكم بالعدل . ثم حذرهم عاقبة الإهمال فقال « إن الله كان سميعا بصير » .

يعنى أنه لا يخفى عليه شيء من الترك أو التقصير ، فلا تدعوا الأمانة ولا تقصروا فيها ، ولا تدعوا العدل ولا تقصروا فيه فانه محاسبكم ومجازيكم لا يخفى عليه شيء « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

الأمر بأداء الأمانة أمر لكل واحد من الأمة بأداء كل أمانة ، لا يختص به الولاة ولا تختص به طائفة من الطوائف ؛ الولاة يؤدون الأمانة لمن ولوا أمرهم فى حقوقهم وما ائتمنوا عليه من أمورهم ، يعدلون بينهم فى القضية ، ويقسمون بينهم بالسوية ، لا يظلمون أحدا ولا يستأثرون بحق ، ولا يخونون فى مال ، ولا يحابون صديقا أو نصيرا ، ولا يضرون أحدا لعداوة « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » .

والرعية تنصح الولاة وتخلص لهم عند المشورة ، وتتلطف فى ردهم الى الحق إذا انحرفوا عنه.

وكل واحد من الناس مطالب برد الودائع والعوارى ، وشهادة الحق وعدم الغش ، ومطالب بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومطالب باجتناب الزور والفحش ، ومطالب بصيانة الأموال والأعراض ، فلا القربى ولا صلات الرحم ولا الصداقة ولا المناصرة تحل التمييز والتفضيل ، ولا العداوة ولا الخلاف فى الرأى يحل الإجحاف ويبيح الظلم .

جاء قاتل زيد بن الخطاب أخى عمر الى عمر وافدا ، فلما رآه عمر قال : إنى لا أحبك حتى تحب الأرض الدم ! فقال: أو ما نعى ذلك حقا يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا . قال : لا أبالى إذاً ، إنما يبكى على الحب النساء .

كل الناس أمام الولاة سواء لا يفضل أحد ألا بعمل جليل أو علم نافع .

٢ — « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا »

بعد أن أمر الله بأداء الأمانة وأمر بالعدل فى الحكم بين الناس ، بين فى هذه الآية مصادر التشريع فى الاسلام ، فلم تترك الآية مصدرا من المصادر التى استقر عليها الأمر بين الأئمة واستقرت عند المسلمين .

وكما تحتاج كل أمة الى ولاة وقضاة يحكمون بالقسط وينفذون الأحكام ، كذلك تحتاج كل أمة الى قانون له السلطان على النفوس يكون هو المرجع عند الاختلاف والتنازع ، ويكون الفيصل عند الشجار تحميه الأمة بسلطانها وتردع كل من يحاول الافلات منه ويحاول الخروج عليه وعدم الطاعة لأحكامه .

مكتبتنا العربية

من القواعد المقررة عند المسلمين أن الحاكم هو الله رب العالمين : « إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه » « وإذا قيل لهم تعالوا الى ماأنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

مرد الحكم إلى الله وحده ، وإلى الطرق التى أرشد اليها فى هذه الآية الكريمة ، وقد ذم الله من اتبع غيره ومن فرق دينه بغيا وعدوانا ، قال تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ومااختلف فيه إلا الذين اوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بأذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »

فى القانون الاسلامى عصمة من الخطأ ؛ فكتاب الله لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو المصدر الأسمى من مصادر التشريع ، وهو فى المقام الأول لايعدل عنه متى وجد نص للحادث فيه . ومن السنة المطهرة المنقولة نقلا صحيحا موثوقا به عصمة ، لأنها وحى قولى أو عمل أقر عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى فى المكان الثانى بعد كتاب الله .

والكتاب والسنة تحيط بهما العصمة إذا كانت نصوصهما واضحة لاتحتمل خلافا عند الفقهاء بأسرار الكتاب والفقهاء بأسرار العربية ، وهذان المصدران هما المقصودان بقول الله « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » .

لم يشتمل الكتاب الكريم ولا السنة المطهرة تفصيلا إلا على بعض قواعد العدل ، لكن قواعدهما العامة يمكن على ضوئها أن توضع القواعد فى كل زمان وكل موطن بما يناسب ذلك الزمان وذلك الموطن ، وبما فيه مصلحة الناس ومصلحة الجماعة الانسانية مع ملاحظة عرف الناس وعاداتهم والضرورات التى طرأت عليهم ، ومع ملاحظة اليسر الذى هو أخص صفات هذه الشريعة « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

لذلك أرشد الله سبحانه الى مصدر من مصادر التشريع ثالث ألزم اتباعه وطاعته كما ألزم اتباع الكتاب والسنة ، وهذا المصدر هو المشار اليه بقوله جل شأنه « وأولى الأمر منكم » هذا المصدر هو الينبوع الفياض يسد حاجة الأمة الاسلامية فى التشريع . والامام الرازى يقرر أنه مصدر معصوم من الخطأ حيث يقول « أمر الله بطاعته وطاعة رسله وطاعة أولى الأمر على سبيل الجزم ، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم يجب أن تكون له العصمة » . ويرشد الى قول الفخر الرازى ماشتهر عند المسلمين من أنه لا تجتمع الأمة على ضلالة ، وقول الله تعالى « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » .

مكتبتنا العربية

فتشريع أولى الأمر هو تشريع الأمة الاسلامية ، وهو سبيل المؤمنين، فيجب أن تكون له العصمة من هذا الطريق .

وقد ذهب الناس فى تفسير أولى الأمر مذاهب . وقد اختار الرازى أنهم أهل الحل والعقد وأطال فى بيان مذهبه والرد على مخالفيه بما فيه كفاية ومقنع .

وأهل الحل والعقد كلمة استعملها علماء الكلام وغيرهم فى باب الأمامة العظمى ، وقرروا أنهم زعماء المسلمين الذين تتبع الأمة رأيهم ولا يخالفون عند اتفاقهم ، وأنهم مصدر السلطة تصدر عنهم صفة الأمانة والخلافة لامام المسلمين وخليفتهم .

فهم أهل البيئة من العلماء والفقهاء والأمراء ورؤساء الجند والقبائل والعشائر . وعلى الجملة هم الذين يمثلون الأمة الاسلامية تمثيلا صحيحا بعيدا عن الهوى والغرض وعن سائر المؤثرات ، ويمثلون طوائفها المختلفة ، فهم أصحاب الكفاية فى الرأى والتشريع وأهل الدراية بمصالح الأمة وما يوافقها .

واتفاق أهل الحل والعقد أو أهل العلم والرأى والدين هو الذى يسمى إجماع المسلمين وهو الركن الثالث من أركان التشريع يصار إليه حيث لا توجد نصوص الكتاب والسنة ، وحيث يعرض الاختلاف فى نصوص الكتاب والسنة ، فهو الذى يحسم الخلاف ويظهر رأيا على رأى ، ويحتم اتباع رأى دون رأى ، وبوجد القواعد التى يرجع اليها عند الفصل فى الخصومات ، وبوجد النظام الذى تلزم به الأفراد والجماعات .

وعند التنازع بين أولى الأمر سنّ الله طريقا لحسم النزاع هو الرجوع الى قواعد الدين العامة ، وتلمس الأسباب والعلل وقياس الحوادث على نظائرها وأشباهها .

وهذا معنى قوله : «فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول» . وتلمس الأسباب والعلل ومقارنة الحوادث هو ماسمى عند الفقهاء بالقياس الذى جعلوه مصدرا رابعا من مصادر التشريع . وعرض الخلاف على قواعد الدين العامة وقياس الأمور بأشباهها يقوم به أو لو الأمر باختيار طائفة من أهل البصر والفقه وأهل الرأى والعقل تبحث الأمور وتعرضها على أولى الأمر .

هذا كله ، وهو وضع النظم والقواعد بواسطة أولى الأمر والبت فى أمور الخلاف ، إنما يكون فى قوانين التعامل وفيما يعرض الفصل فيه على الولاة والقضاة .

أما العبادات وما لا يرجع فيه الى القضاة والولاة فأمره هين ؛ كل مجتهد يجب عليه العمل برأيه ، وكل عامى عليه أن يقلد من يختاره من المجتهدين . لكن قوانين التعامل لا يجوز أن يترك أمرها فوضى . وقد جرت عادة الأمم الاسلامية أن تولى القضاة المجتهدين ليعملوا برأيهم ،

وأن تولى القضاة المقلدين وتلزمهم برأى إمام من الأئمة ، ولم تتبع كتاب الله سبحانه الذى فرض طاعة أولى الأمر وجعلهم مصدرا من مصادر التشريع ومصدرا لحسم الخلاف ، وقد جر ذلك الى فوضى والى أن ضج الناس من القضاة ومن الفقه ، فحدث ما حدث فى الأمة الاسلامية من جنوح الى غير التشريع الاسلامى ، وحدث ما حدث من جمود الفقه الاسلامى وتعطيله حتى صار من الآثار المتوارثة ليس له فى الحياة إلا نصيب ضئيل فى بعض قضايا الأسر .

ومن أول الواجبات أن يعرف الناس القانون الذى يتعاقدون عليه ، والذى تجرى عليهم أحكامه عند النزاع ومن أول الواجبات أن يكون للقانون صفة القدسية والخصائص التى توجب الاطمئنان اليه ، وهذه الصفات لا تتحقق فى الفقه الذى جمع من آراء أفراد ، ولا تتحقق إلا على الطريقة التى ارتضاها الله سبحانه وأمر بها ، والطريقة التى أمر بها هى اتباع كتابه وكتابه معصوم ، واتباع رسوله ورسوله معصوم ، واتباع أولى الأمر فيما لا نص فيه ورأيهم معصوم .

كل هذه أمور يقدمها المسلمون اتباعا لأمر الله من جهة ، وجريا مع سلامة العقل والفطرة والعادة من جهة أخرى ، فليس أحق بالتقديس من كتاب الله ، وليس أحق بالتقديس من حكم جاء على لسان رسول الله ، وليس أحق بالتقديس بعد ذلك من حكم محصه أهل الحل والعقد ورضيه أهل الحل والعقد للأمة .

وقد ختم الله الآية الكريمة بقوله « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر »

يعنى أن الذى يطيع هذه الأوامر فيطيع الله ورسوله ويطيع أولى الأمر ويرد المتنازع فيه الى الله ورسوله هم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ؛ لأنهم هم الذين يعرفون الله ويعرفون شمول علمه وحكمته وأنه لا يريد لعباده إلا الخير ، وهم الذين يخافون غضب الله وعذابه ويخافون العقاب فى اليوم الآخر « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » فيبادرون الى امتثال أمر الله واجتناب ما نهى .

ثم قال : « ذلك خير وأحسن تأويلا »

أى فاتباع هذه الأوامر خير ، واتباع هذه الأوامر أحسن تأويلا ، وعاقبة للمسلمين الذين يعلمون أن لا سعادة لهم ولا لجماعتهم إلا فى اتباع ما رسم الله من حدود وما شرع من قانون ، وأن العقل الانسانى مهما سما تفكيره ومهما ارتقت طرق علمه قاصر عن أن يدرك المصلحة إلا فى حدود عقله الانسانى الضيق الذى يفهم الأمور فى مقدمات ونتائج وضعها هو واصطلح عليها وتعارف بها قد تخطىء وقد تصيب ، ولكن العليم الخبير هو الذى رسم للناس المصالح على وفق ما رآه لعادتهم الأبدية دينا ودنيا ، وهو عالم الغيب والشهادة ، وهو عالم السر والنجوى ؟

مكتبتنا العربية

السيرة المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة

آيات باهرة للاسلام فى تخليص العلم من الرجعية لتكميل الشخصية الانسانية

لو كان يرمى الاسلام الى إصلاح الانسانية من ناحيتها الدينية فحسب ، كما هو حال كثير من الأديان ، لسهلت مهمته ؛ ولكنه يعتبر الحياة الانسانية من جهتها المادية والروحية كُلاً لا يتجزأ ، وشرع ليكون إصلاحا عاما لهاتين الجهتين معا .

وليس يخفى على ذى بصيرة صعوبة تقويم الشخصية الانسانية ، وهى فى مزدحم الشئون الحيوية ، ومضطرب الأمور التعاملية ، بحيث تنزل منها على حكم المثل العليا التى تتطلبها الانسانية الكاملة ، وتستدعيها المدنية الفاضلة ، مع المحافظة على كيان الاجتماع ، وعلى العوامل التى تدفعه للتطور ، وعدم المساس بالبواعث النفسية التى تستمد وجودها من غريزتى حفظ الذات واستدامة النوع ، وغير ذلك من الدوافع التى لها جذور عميقة فى الحياة الحيوانية والنباتية اللتين يستعير منهما الانسان جثمانه المادى ومعظم اتجاهاته الحيوية ، باعتبار أنه واحد من آحاد الأسرة الأرضية .

ليس مَثل الاسلام كمثل سائر الأديان فى هذه الناحية ، فان هذه الأديان شرعت لأمم استكملت شرائط الاجتماع الظاهرة والخفية ؛ ولكن الاسلام أرسل الى قبائل لا عهد لها باجتماع عام ، واستهدف إنشاء أمة عالمية تقوم على المبادىء والأصول ، لا على محض حفظ الذات وتنازع البقاء ، وهذا مما يجعل عمله أكثر كلفة ، وأشد مشقة .

وقد سبق لنا أن بينا خطورة هذا العمل وفذاذته فى تاريخ البشرية ، ولسنا نود أن نردد ما قلناه فى مقالات سبقت عن وجوه الاعجاز فى القيام به ، وتأديته الى الغايات المرادة منه .

نريد الآن أن نبين الأصول التى وضعها الاسلام خاصة بتقويم الشخصية الانسانية فى هذا المعترك الهائل بين المطالب الجسدية والشئون الروحية ، وفى معمعان تنازع البقاء مع الجماعات الأرضية ، ونشير الى الحوافظ التى حاط الاسلام تلك الاصول بها ، فنقول :

مكتبتنا العربية

لما كانت الشخصية الانسانية لا يقوِّمها ولا يرقيها شيء غير العلم ، وجه الاسلام عنايته اليه توجيها خاصا ، فقال تعالى : « وقل رب زدنى علما » وقال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وسجل على الذين لا يعلمون حكما لا يرضاه ذو إدراك لنفسه ، فقال تعالى : « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون » . وشدد النبي صلى الله عليه وسلم فى وجوب طلب العلم فقال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، ولم يطالب أحدا بالسفر الى أقصى الأرض لطلب شيء غير العلم فقال : « أطلب العلم ولو بالصين » .

وشرَّف الاسلام على لسان رسوله العلمَ فقال : « أفضل العبادة العلم » وقال « نظر الرجل فى العلم ساعة خير له من عبادة ستين سنة » ، وقال : « خذ الحكمة ولو من مشرك » . وقال : « كن عالما أو متعلما ولا تكن الثالثة فتهلك » ، والثالثة هى أن يكون لا عالما ولا متعلما ؛ فهل تظن أن تعليما من التعاليم الانسانية بلغ هذا المبلغ من التحضيض على طلب العلم ؟

ومراد الاسلام ورسول الاسلام من العلم المعارف المحققة ؟ لا الظنون والأوهام الملفقة ، قال تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء » ، المراد بالقول الثابت المؤيد بالحجة ، المستند الى الدليل ، فلا يجوز الايمان بشيء إلا ببرهان : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . فاذا سئلوا عن معتقداتهم يوم الحساب لم يتلعثموا فى الجواب ، كما هو شأن المقلدين الذين لم ينظروا فيما يلقى اليهم نظر نقد وتمحيص . وليس فيما يرى الرائى بعد هذا مرمى فى وجوب تمحيص العلم وتجريده من الأوهام والأهواء .

ولما كان لا سبيل الى ترقية الشخصية الانسانية إلا بالعلم كما ذكرنا ، فقد جعله الاسلام أساسا للدين كما رأيت ، ثم حاطه من الحوافظ بما يضمن خلوصه من الأهواء والأوهام فى جميع أدواره .

ولما كان من أخص صفات المتدينين المحافظة والحرفية ، وكان العلم لا ينمو ولا يتطور إلا فى جو من النظر الحر ، والاستقلال عن جميع الاعتبارات الاعتقادية ، فقد حاطه الاسلام بحوافظ تحميه شرى الجمود والرجعية ، ومضى العلم فى الأمة الاسلامية حرا طليقا من جميع القيود ، مما لم ير له مثيل فى أمة من أمم العالم ، ويكاد لا يصدِّق ذلك من لا إلمام له بتاريخ العلم فى الاسلام على النحو الذى سنورده .

أما المحافظة فهى من أخص صفات المتدينين ، لأن صيانة الوحى من عبث الظنون ، وتلاعب الأهواء ، يستدعى ذلك ، فهم يرثون مبدأ المحافظة كابرا عن كابر ويفخرون بها ، ولكن العلم يصاب منها بكارثة لا يلبث معها أن يجمد ، ويصبح رجعيا حيال التطورات التى يكون بلغها فى البيئات الحرة .

مكتبتنا العربية

فاذا كنا نفخر بأننا الأمة الوحيدة التي حافظت على الوحي سليما من كل دخيل بشري ، فلسنا نستطيع أن نفخر بأننا حافظنا على العلم الذي حذقه آباؤنا في القرن الرابع من حياة الاسلام، لأنه تطور في ألف سنة بعدها تطورا يكاد لا يُبقي بينه و بين العلم في ذلك العهد شبها .

شرع الاسلام في الأمة التي ألفها وكانت مجردة من العلم بمعناه الحرفي ، فحثها على النظر في الكون قائلا : « انظروا ماذا في السموات والأرض » ، ثم قدح في الذين لا تؤثر فيهم آيات الكون ، ولا تبعثهم على التفكير فقال : « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ، وحض الناس على إيقاظ غريزة التأمل فقال : « أفلا تعقلون » ، « أفلا تتفكرون » ، « لعلهم يتفكرون » ، وأكثر من تكرار هذا التحضيض ، ثم سرد على تاليه من عجائب المخلوقات النباتية والحيوانية والأجرام السماوية ما يصعب حصره .

ومما يجب أن يؤثر عن الاسلام مما لم يشاركه فيه دين آخر، أنه حصر الخشية الكاملة من الله في العلماء الذين يتدارسون آياته الكونية ، فقال تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود ؟ ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك ؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور » .

لعمري هذه إشادة كبيرة بالعلم الكوني اختص بها الاسلام . لأنه الدين الأخير الذي ستمر به الدهور وهو قائم ، حتى لا يقف أهله في سبيله ويمنعوه من أن ينمو ويتطور ؛ وكيف يمنعون من التطور عاملا يحصل لأهله من الايمان ما يفضلون به سائر المؤمنين ؟

لم يكتف الاسلام بهذا كله ، فقرر أصولا تمنع الجمود العقلي ، وتحمي من التحجر الفكري، منها أنه حرم على أهله التقليد لكائن من كان ، لأن التقليد كما يكون في حق يكون في باطل ، وطالب كل إنسان باقامه الأدلة على ما يؤمن به من العقائد ، حتى قرر الأصوليون بناء على هذا أن إيمان المقلد غير جائز . وهذا أصل لا يوجد له نظير فيما بين أيدينا من الأديان الأخرى . والمقصود منه إزالة الحصانة العلمية عن كل رأي مهما كان مصدره ، ووجوب مطالبة صاحبه بالدليل ، وهو الشرط الأساسي في كل تثبت .

وقد احترم أئمة المسلمين هذا الأصل بما لم يؤثر مثله عن أية أمة أخرى من الأمم التي بلغت شأواً بعيداً في التحضر . فكان أبوحنيفة يقول : هذا رأي أبي حنيفة ، وهو أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب .

وكان مالك يقول : أنظروا في كل ما أقول ، فما من أحد إلا ويؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذه الروضة ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما هو وحي . أما فيما هو رأي فقد قبل النبي رأي غيره .

مكتبتنا العربية

وقال جميع الأئمة مثل هذا ، وهو معلوم فى الاسلام لايختلف فيه اثنان .

ومن تلك الأصول فتحه باب الاجتهاد فى الدين إلى يوم القيامة ، وليس بعد هذا اكبار لشأن الحقيقة ، واعتراف بكرامة العقول ، واحترام لمبدأ تخالف الآراء .

ومنها ، وهو أكبرها شانا ، تقرير الاسلام على لسان النبى صلى الله عليه وسلم أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها . أليس معنى هذا أن الناس فى كل نحو مائة سنة تتحول أحوالهم ، وترق عقولهم ، وتتلطف أخلاقهم ؛ أو يحدث التبدل فى عكس كل ذلك ، وتتطلب الأحوال الجديدة نظرات جديدة فى الدين ، تستدعيها الأحوال الطارئة ؟ وإذا كان المسلم يجب عليه أن يسبغ ذلك فى الدين ، أفليس يسيغه فى العلم الكونى الذى هو مستمر التحول من مجهول الى معلوم ، ومن غامض الى واضح ، كما يدل عليه تاريخه الطويل فى مدى ألوف السنين ؟

ومن العجب العاجب أن العلم الذى اصطدم بالدين فى أوربا أكثر من ألف سنة ، فكانت بينهما منازعات انتهت بتأسيس محاكم دعوها محاكم التفتيش ، كان من أثرها تضحية أكثر من ثلاثمائة ألف عالم فى سبعة قرون (من سنة ١٠٨٣ إلى سنة ١٨٢٠) لم يبل بمثل هذا العداء لدى المسلمين بفضل القرآن ، فأقبل المسلمون على العلم كما أقبلوا على الدين ، لأن الإسلام كما رأيت آخى بينهما إخاء لاتنفصم له عروة ، وكانوا كراما متسامحين معه إلى حد أنهم قرروا فى أصولهم صرف الألفاظ التى تأتى مناقضة لمقرراته عن ظاهرها ، لتتفق مدلولاتها معها ، فقبلوا كل ما ثبت من تلك المقررات ثبوتا قاطعا ككروية الأرض وحركتها حول الشمس وغير ذلك. ولكنهم ما فعلوا ذلك استخفافا بالدين ، ولكن عملا بتعاليمه ، فانه نص على أن أساس الاسلام مايثبت من أحكام العقل ومقررات العلم ، ولا يخفى أن الألفاظ يعتريها من ناحية الفنون البلاغية المجاز والاستعارة ، وحالات أخرى تجعل التأويل ضرورة لابد منها ، فقد ورد فى الكتاب الكريم ما يوهم أن لله وجها وسمعا وبصرا ومكانا الخ . والتنزيه الذى قرره القرآن ينافى ذلك كله ، فكانت الحاجة الى التأويل لا محيد عنها . من هنا أصبح التأويل أصلا من أصول فهم القرآن على حقيقته ، فطبقوه على المسائل العقلية والعلمية مما يكون فى القرآن ما يناقضها فى الظاهر .

هذا التسامح الذى يعتبر آية لعظمة الاسلام ، كان سببا فى قبول المسلمين لجميع مقررات العلم ، وكان ذلك لمصلحة تكميل شخصيتهم الانسانية ، وقد برهن تاريخهم أنهم وصلوا من كمالها الى المكان الأرفع ، كما سيتبين كل ذلك فى فصولنا التالية .

محمد فريد وجدى

مكتبتنا العربية

السنة

منهج النبي صلى الله عليه وسلم فى العبادة

عن أنس بن مالك رضى الله عنه يقول : « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالوّها فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا . وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » . رواه الشيخان .

المفردات

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الرهط : الجماعة من ثلاثة إلى عشرة . وفى رواية مسلم « نفر » وهم من الثلاثة إلى التسعة . تقالوها ، عدوها قليلة . والمراد بذنبه ما فرط من خلاف الأولى بالنسبة إلى مقامه الكريم ، وهو من قبيل « حسنات الأبرار سيئات المقربين » . وإذا كان العتاب على قدر المحبة فان الذنب على قدر المنزلة . وتطلق السنة ويراد بها ماسنه صلى الله عليه وسلم لأمته مما يقابل الفرض . وتطلق ويراد بها السيرة والطريقة ، وهذا هو المراد هنا . والرغبة عنها العدول والاعراض ؛ فان كان على وجه من التأويل عذر صاحبه ، ولكنه بسبيل الوقوع فى شرك التعمق والتنطع ، وإن كان عن بغض وكراهية فالله برىء من الكافرين ورسوله ، وعياذا بالله من ذلك !

المعنى

النبي صلى الله عليه وسلم خليفة الله فى أرضه ، وأمينه على وحيه ، وسفيره الى أمته ؛ يأخذ عن ربه ويعلمهم ، ويستضيء بنور ويرشدهم « ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » . مقامان كريمان ، يقضى أولهما أن يكون المثل الأعلى فى القانتين ، ويقضى ثانيهما أن يكون القدوة المثلى فى الهداة المرشدين ، وكذلك كان صلوات الله وسلامه عليه .

مكتبتنا العربية

كان فى مقام العبودية ، وهو أحب مقام اليه ، يصل ليله بنهاره فى خدمة مولاه ، ويقوم من الليل حتى تتورم قدماه ، وإذا قيل له : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا ؟

وكان فى مقام الهدى والارشاد يترفق بصحابته ، ويدعوهم الى الأخذ بالأيسر من الأمور مالم يكن إثما ، ويحذرهم التكلف والتعمق ، ويقول لهم : خذوا من العمل ما تطيقون ؛ فإن الله لا يمل حتى تملوا . ويقول لعبد الله بن عمرو وقد شدد على نفسه : صم وأفطر ونم وقم ، فان لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزورك عليك حقا . ويشكو اليه حنظلة غفلته ومداعبته أهله ويحسب ذلك نفاقا ، فيهون عليه ويقول : ولكن ياحنظلة ساعة وساعة ، ثلاث مرات . ثم كانوا إذا ذكروا الدنيا ذكرها معهم ، وإذا ذكروا الطعام ذكره معهم ، وإذا ذكروا الآخرة ذكرها معهم ، وما طلب الى تاجر أن يترك تجارته ، ولا الى صانع أن يهمل صناعته ، بل أقرهم على أسبابهم ، ودعاهم الى إتقانها وأمرهم بتقوى الله فيها ؛ وكان يتخولهم بالموعظة خشية السآمة عليهم ، وكان أحب العمل اليه أدومه وإن قل « فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » .

ولم يكفه أن يأخذهم بهذا المنهج الحكيم حتى أكمله بخطة عملية مثلى ، لا تدع لمتنطع مجالا ، ولا لمتعمق عذرا ، وذلك أنه كان يترك النافلة أحيانا وهى أحب اليه ، ويقتصد فى الطاعة وفى ازدياده منها قرة عينيه ؛ إما راهبا أن تفرض عليهم ، وإما راغبا أن يسترفق بهم ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم .

خفى هذا الذى جلوناه لك على كثير من الناس ، ومنهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بادىء الرأى ، إذ قاسوا المنزلة عند الله والزلفى اليه بمقياس الجد والنصب ، لا ، بل بمقياس الحرج والعنت . ذهبوا يسألون أمهات المؤمنين عن عبادته صلى الله عليه وسلم فى السر ـ كما فى رواية مسلم ـ فلما أخبروا أخذهم جانب من العجب كأنهم استقلوها بالنسبة الى أنفسهم وهنالك اعتذروا عن النبى صلى الله عليه وسلم بأن الله قد غفر له ، وآتاه ما لم يؤت أحدا غيره ، فلا عليه ألا يزداد وهذا مكانه من الله عز وجل . ثم أصروا على أن يأخذوا أنفسهم بالأشق من العبادة ؛ فواحد يلزم نفسه قيام الليل كله لا يذوق فيه نوما ، وآخر يفرض على نفسه صيام الدهر كله لا يفطر إلا يوما حرم الله صومه ؛ وثالث يترهب فلا يتزوج أبدا يبغى بذلك التفرغ لعبادة ربه . ظنوا أن هذا طريق السبق الى الدرجات العلا ، وأن بعد الشقة بينهم وبين الرسول تسوغ لهم ما ذهبوا اليه .

فما إن علم صلوات الله عليه بما اعتزموا حتى اشتد عليهم فى العتاب الذى ترى ، وأبان لهم أن القصد فى العبادة أزكى للنفوس وأضمن لها فى تحصيل ما تصبو اليه من سبق وفضل . ثم

مكتبتنا العربية

نقض حكمهم أن المغفور له لا يحتاج الى مبالغة فى العبادة ، بأنه بها أجدر وأحق قضاء لحق النعمة ، ووفاء بواجب الشكر ، بيد أنه يقتصد فى الأعمال ليكون القدوة المثلى فيما يدعو اليه : وحكمة أخرى : أن يعلموا أن رفعة الدرجات عند الله إنما هى بالاخلاص وصدق الرغبة فى العمل وإن قلّ ، لا بالكثرة منه والتعمق فيه ؛ فكم من قائم ليس له من قيامه إلا التعب والسهر ، وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش .

وليس الإحسان ، وهو أعلى المقامات ، أن تكثر العمل ، وإنما « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . ثم ختم عتابهم بأشد ما يكون من الزجر ، إذ تبرأ من المتنطعين الذى رغبوا عن سنته ، ونكبوا عن محجته ، ولا يزيغ عنها إلا هالك .

وبعد ؛ فلا نزال فى الحديث حكم وأحكام ، من حقه علينا أن نشير الى طائفة منها :

السر فى اختصاص أمهات المؤمنين بالسؤال :

فمن ذلك أنهم اختصوا أمهات المؤمنين بالسؤال ؛ لأنهن أدرى بعبادته صلى الله عليه وسلم فى السر وهى التى يقصدون إليها . وأما عبادته فى العلن فهى معروفة لهم . وكان هذا السؤال بعد الحجاب لأن حادث الرهط سبب نزول قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وإنما نزلت سورة المائدة فى حجة الوداع فى السنة العاشرة ، وكان الحجاب فى ذى القعدة من السنة الخامسة .

من الأساليب المثلى فى التربية :

ومنها أنه صلى الله عليه وسلم واجههم بالعتاب بعد التثبت مما قالوا رفقا بهم وسترا عليهم ، ثم حذر أصحابه كافة أن يزلوا فى هذا التعمق ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ، كما فى رواية مسلم . وهذا طريق التوفيق بين روايتى الشيخين ؛ إذ اقتصرت الأولى على اختصاص الرهط بالعتاب ، واقتصرت الثانية على التعميم فى الخطاب . وتلك هى الطريقة المثلى فى التربية والتعليم ، ما دام فى الدنيا تهذيب وإرشاد .

ومنها الإقسام بالله عز وجل فى الأمور المهمة ذوات البال توكيدا وتثبيتا ، وأن من الخير والحكمة إظهار الفضل والمنزلة تلبية لدواعى التهذيب والتقويم وبخاصة عند أمن الرياء .

التمتع بالطيبات لا ينافى الورع :

وفى الحديث — عدا فضل النكاح والترغيب فيه — دعوة إلى التمتع بالحلال الطيب ، وأنه لا يجافى الورع والتقى ، بل إن العدول عنه هو المجافاة للورع والتقى . وللعلماء فى هذا بحث طويل .

مكتبتنا العربية

والحق الذى تؤيده الدلائل ويشهد به الحس أن المباح فى ذاته لا ضرر فيه ، ولاذم يلحق متناوليه ، وإنما يعرض له ما يجعله ذميما منهيا عنه كما يعرض له ما يجعله حميدا مندوبا اليه ، وكيف يكون رفض ما أحل الله لعباده ورعا وتقى وهو جلت آلاؤه يقول « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » ؟ وقد كان السلف الصالح يتناولون الطيبات ولا يتحرجون منها بل كان الصحابة رضوان الله عليهم لا يذمون المباحات ولا يرفضونها . وهذا أزهد البشر صلوات الله وسلامه عليه ـ وهديه أكمل الهدى ، وطريقه أقوم الطرق — كان يحب الحلواء والعسل ، ويأكل اللحم ويختص بالذراع وكانت تعجبه . وكان يستعذب له الماء ، وينقع له الزبيب والتمر . وأخبر أنه حبب اليه النساء والطيب ، وكان ينهى عن الترهب والغلو حتى عدّ فاعلهما خارجا عن سنته . والأحاديث الصحيحة فى ذلك كثيرة مستفيضة . نعم ما كان يتكلف من هذه المباحات شيئا ولا يتشهاه ، ولكنه إذا وجده لم يكن يرفضه ولا يأباه .

وفصل الخطاب أن خطر المباح إنما هو من ناحية ما يعرض له من التوسع فيه والاشتغال به ، وقلما نرى منغمسا فى الترف عرف الله حق معرفته وشكره حق شكره . ويؤيد هذا ما روى عن معاذ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه الى اليمن قال له : « إياك والتنعم فان عباد الله ليسوا بالمتنعمين » رواه أحمد والبيهقى ؛ ورواة أحمد ثقات . فقصد السبيل ألا يسرف المرء فى الطيبات حتى تفضى به الى الترف والبطر والوقوع فى الشبهات ، وألا يشدد على نفسه حتى يأخذ منه التنطع ويزحف اليه الملل ، وكلا الأمرين مجاف للحنيفية السمحة والمنهج الحق الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . والكيس من ساس نفسه وأخذها بالتى هى أقوم .

حرص الرسول وأصحابه على الخير :

وفى الحديث حرصه صلى الله عليه وسلم على أمته ، ورأفته بهم ، وعنايته بتربيتهم ، وحرص أصحابه رضى الله عنهم على تتبع مناهجه ، وتقصى سيرته ، وهكذا تكون سيرة الحكماء المربين مع الطلاب الراشدين .

والحديث يرفع الحرج فى سؤال النساء ، ويبيح مخاطبتهن والتلقى عنهن فى أدب ووقار من وراء حجاب . ولعل فى ذلك عبرة لقوم أسرفوا فى السفور ففتحوا لهن الباب ، وعظة لآخرين تنطعوا فى الحجاب فحرموا عليهن رد الجواب . وكلاهما ناكب عن الصراط المستقيم وعن سيرة أغير الناس أجمعين ؟

طه محمد الساكت
المدرس بالأزهر

مكتبتنا العربية

حياة رجالات الإسلام

خالد بن الوليد

— ١٠ —

عذر النبي صلى الله عليه وسلم خالدا رضى الله عنه فى حادث بنى جذيمة وقبل تأوله ، وكان أعظم مظهر لذلك إبقاء خالد أميرا على أعنة الخيل حتى فى الغزوات التى يكون فيها النبى صلى الله عليه وسلم القائد الأعلى للجيش ، فإن خالدا لم يكد يرجع بكتيبته من بنى جذيمة حتى كان النبى صلى الله عليه وسلم قد تجهز لغزو هوازن لما بلغه تجمعهم لحربه بقيادة زعيمهم مالك بن عوف النصرى ، وخرج إليهم المسلمون فى جموع كثيفة من المهاجرين والأنصار ومسلمة الفتح وطوائف من الأعراب رغبوا فى الغنائم ، وقد أعجبت المسلمين كثرتهم ، وقالوا لن نغلب اليوم من قلة ، وكان خالد بن الوليد أميرا على مقدمة الجيش من بنى سليم ، وهم كتيبته من قبل فى مائة فارس ، حتى إذا انحدر المسلمون الى وادى حنين فى غبش الظلام فاجأهم كمين هوازن من شعاب الوادى واحنائه ومضايقه ، وقد أجمعوا وأعدوا فلم يرع المسلمين إلا الكتائب قد شدت عليهم شدة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر قليل معه من أهل بيته وخاصة المهاجرين والأنصار ، وكان الابتلاء على المسلمين فى هذه المحنة شديدا ، ثم تداركهم الله برحمته وأنزل عليهم سكينته وأمدهم بنصره ، وكانت الدائرة لهم على المشركين الذين هزمهم الله هزيمة نكراء ، وشفى الله صدور المؤمنين .

أحصى الرواة أسماء الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أر فيما اطلعت عليه من مصادر السيرة والتاريخ اسم خالد بن الوليد بينهم ، والذى ترجح عند البحث أن خالدا رضى الله عنه انسحب مع كتيبته فى أول جولة حتى إذا تجمع الناس الى رسول الله كر خالد مع أبطال الاسلام يضرب فى وجه المشركين حتى كثرت جراحاته وعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال ابن عبد البر : « وكان خالد على مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى سليم يوم حنين وجرح يومئذ ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رحله بعد ما هزمت هوازن ليعرف خبره ويعوده ، فنفث فى جرحه فانطبق » وكأنما كان ذلك الانسحاب محضاء

مكتبتنا العربية

لخالد ملأ صدره غيظا على المشركين ، فكان يقتل كل من لقيه ، لا يبالى رجلا أو امرأة ؛ روى ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر يومئذ بامرأة وقد قتلها خالد بن الوليد والناس متقصفون عليها فقال : ما هذا ؟ فقالوا : امرأة قتلها خالد بن الوليد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض من كان معه : أدرك خالدا فقل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاك أن تقتل وليدا أو امرأة أو عسيفا (أجيرا)

ولسنا نرى فى هذا الانسحاب خدشا لبطولة خالد رضى الله عنه ، لأنه كان مع كتيبته مقدمة للجيش ، وكان عنفوان الحملة عليه ، فلو أنه صبر وصبر معه جنده لهذه المفاجأة العاصفة لكانت العاقبة إفناء هذه الكتيبة الباسلة ، وليس فى ذلك خير للاسلام والمسلمين . على أننا لا ننسى الطبيعة البشرية ، وما يعتريها من الدهش عند مفاجأة شدائد الخطوب ، فلا حرج على البطل إذا انسحب متقهقرا ليستعد للوثوب ، وقد عرفنا من سنن الحرب الحديثة إن الانسحاب أمام العدو — إذا أخذ الجيش على غرة — من أهم الفنون الحربية ، وقد عهدنا هذا اللون من سياسة الحرب فى خصائص خالد بن الوليد ، ومنه موقفه فى غزوة مؤتة على ما أسلفنا تفصيله . ولا نتوهم عاقلا يعترض علينا بموقف النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة وما ظهر من شجاعته القاهرة ، لأن شخصية النبى صلى الله عليه وسلم أعظم من أن تقايس بأية شخصية فى الوجود ، أما الذين ثبتوا معه فانهم كانوا أركان حربه وخاصته الملازمين ، فلما رأوا من ثباته وشجاعته ما رأوا شجعوا واتقوا به البأس ، وخالد رضى الله عنه كان مرتبطا بكتيبته لأنه قائدها وأميرها ، فكان عليه أن ينجيها من الهلاك ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وليس موقف قائد الكتيبة أو الفرقة كموقف القائد الأعظم ، لأن ذاك روح فرقته وكتيبته وهذا روح الأمة ممثلة فى الجيش ، ولذلك كان النصر فى غزوة حنين هذه أثرا من آثار موقف النبى صلى الله عليه وسلم وشجاعته الفائقة ، فان الناس لم يلبثوا أن سمعوا الصوت يناديهم « الىّ أيها الناس ، أنا عبد الله ورسوله » حتى عطفوا إليه ، « يذهب الرجل منهم ليثنى بعيره فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه ، فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ، ثم يقتحم عن بعيره فيخلى سبيله فى الناس ، ثم يؤم الصوت حتى ينتهى الى رسول الله صلى عليه وسلم ! » .

كان النصر فى هذه الغزوة نصرا مؤزرا أرعب قلوب سائر العرب ، وكانت قبيلة ثقيف معتصمة فى حصونها بالطائف ، فزحف عليها النبى صلى الله عليه وسلم بجند الله ، وسير خالد ابن الوليد فى ألف رجل على مقدمته طليعة للجيش ، وحاصروا الطائف زمانا اختلفت فى قدره الروايات من غير قتال غير تراشق النبل حتى كان بطل الاسلام خالد ينادى « هل من مبارز ؟ » فلا يرد عليه أحد ، فلما أكثر أجابه زعيم ثقيف عبد ياليل « لا ينزل إليك منا أحد ، ولكن نقيم فى حصننا فان فيه من الطعام ما يكفينا سنة » .

مكتبتنا العربية

بقيت ثقيف فى حصنها لم يؤذن لرسول الله فيها ، فأذّن فى الناس بالرحيل ، فارتحل المسلمون عنها حتى نزلوا مكانا بين مكة والطائف يقال له « الجعرانة » وكانت به غنائم هوازن تنتظر النبى صلى الله عليه وسلم ، وهناك قسمها على الناس ، وأعطى المؤلفة قلوبهم عطاء غامرا كان سببا فى تمكين الايمان من قلوب كثير منهم .

ومما يؤكد مكانة خالد وأن النبى صلى الله عليه وسلم عذره فى إصابة بنى جذيمة اختياره للتثبت من شأن بنى المصطلق ـ وهم من بنى جذيمة ـ بعد أن أرسل اليهم الوليد بن عقبة لأخذ صدقاتهم فخرجوا للقائه تكرمة ، فظن أنهم خرجوا لقتاله ـ وكان بينه وبينهم عداوة فى الجاهلية ـ فرجع الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخبره أنهم يحولون بينه وبين الصدقة ؛ قال القسطلانى فى المواهب : « فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم أن يبعث اليهم من يغزوهم ، فلما بلغهم خبر رجوع الوليد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : يارسول الله سمعنا بمجيء رسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه فرجع فخشينا أن يكون رده بلوغ كتاب منك لغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، فانهمهم رسول صلى الله عليه وسلم وبعث خالد بن الوليد فى عسكر خفية ، وأمره أن يخفى عليهم قدومه ، وقال له : انظر فان رأيت ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم ، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل فى الكفار ، فأتاهم خالد فسمع منهم أذان صلاتى المغرب والعشاء ، فأخذ صدقاتهم ولم ير منهم إلا الطاعة والخير ، وانصرف خالد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبره الخبر فأنزل الله تعالى « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » فكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول بعد نزولها : « التبين من الله والعجلة من الشيطان » .

وهكذا لم يزل خالد بن الوليد أمير سرية أو قائد كتيبة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثه مجاهدا وداعيا الى الله . وقد عرفنا يده فى تكسير الأصنام وهدم الطاغية (العزى) فما يمنعه أن تكون له اليد الأخرى فى هدم « ود » وهو صنم مشهور له ذكر عند العرب ، كان بوادى القرى ، ولما كان النبى صلى الله عليه وسلم بتبوك بعث البطل خالد بن الوليد لهدم (ود) فحال بينه وبين هدمه سدنته من بنى عامر ، فقاتلهم خالد حتى قتلهم ، ثم هدمه وكسره جذاذا ، ثم رجع الى النبى صلى الله عليه وسلم منصرفه من تبوك ، فوجهه فى أربعماية وعشرين فارسا الى اكيدر صاحب دومة الجندل ، فقال خالد : يارسول الله كيف لى به وسط بلاد كلب وإنما أنا فى أناس يسير ، فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه سيظفر به ويلقاه فى متصيده يصيد البقر فيأخذه ، وقال له : إن ظفرت باكيدر لا تقتله وائت به الى ، فخرج خالد على كتيبته من تبوك وجد السير حتى كان بمنظر العين من الحصن ، وكان أكيدر على سطح قصره فى ليلة مقمرة صائفة ، ومعه امرأته الرباب الكندية ، فأقبلت البقر تحك بقرونها باب الحصن

مكتبتنا العربية

فأشرفت امرأته فرأت البقر ، فقالت له : هل رأيت مثل هـذا قط ؟ قال : لا والله ، قالت فمن يترك هذه ؟ ! قال : لا أحد ، وكان أكيدر يضمر لها الخيل شهرا ، فأمر فأسرجت له الخيل وركب معه من أهل بيته وخاصته نفر فيهم أخوه حسان ، فاتبعتهم خيل المسلمين حتى لحقوهم ، فاستأسر أكيدر تصديقا لبشرى رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، وامتنع حسان وقاتل حتى قتل ، وهرب سائر من كان معه حتى دخلوا الحصن ، وأجار خالد اكيدرا من القتل وصالحه على ألفى بعير وثمانمائة فرس ، وأربعماية درع ، وأربعماية رمح وفتح باب الحصن ، ثم انطلق به وبأخيه مصاد وبما صالحه عليه الى النبي صلى الله عليه وسلم فصالحه على أعطاء الجزية وكتب له كتاب أمان .

ولما أسلمت ثقيف أرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم رسله وقد أمر عليهم خالد بن الوليـد ، وكان فى الرسل المغيرة بن شعبة ، فلما عمد جند الاسـلام الى هدم اللات تكـفأت ثقيف كلها حتى خرج العواتق من الحجال ليروا ما تصنع ربتهم بالمسلمين ، فقال المغيرة لأصحابه : لأضحكنكم من ثقيف ، فأخذ الـكرزن فضرب به ثم أخذ يرتكض ، فارتج أهل الطائف بضجة واحـدة وقالوا : أبعد الله المغيرة قد قتلته الربة وشمتوا وزعموا أنها لا تستطاع أبدا ، فقال المغـيرة : قبحكم الله يا معشر ثقيف إنما هى لـكاع حجر ومدر ، ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا سورها وعلا معه الرجال فما زالوا يهدمونها حجرا حجـرا ، حتى سووها بالأرض ، وجعل صاحب المفاتيح يقول : ليغضبن الأساس ، فلما سمع ذلك المغـيرة استأذن من أميره خالد وقال له : دعنى أحفر الأساس فأذن له فحفروها حتى أخرجوا ترابها ، وأخذوا حليها وثيابها ، فبهتت ثقيف ، وانصرف خالد رضى الله عنه على رأس الوفد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أخذوا من حليها وكسوتها ، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه وحمد الله تعالى على نصرة نبيه وإعزاز دينه ؟

صادق ابراهيم عرجون

بلاغة فى الوصف

قيل لأبى عقيل ، وكان يعرف بالبلاغة ، وسمو العبارة ، كيف رأيت مروان بن الحـكم ؟

قال : رأيت رجلا رغبته فى الانعام فوق رغبته فى الشكر ، وحاجته الى قضاء الحاجة أشد من حاجة صاحب الحاجة .

حقا أنها لبلاغة فى الوصف بالـكرم . ومروان المذكور هو والد عبد الملك بن مروان الخليفة الاموى المشهور ، وقد ولى مروان نفسه الخلافة بعد معاوية بن يزيد بن معاوية .

مكتبتنا العربية

المدخل الى دراسة الفلسفة الاسلامية

— ٨ —

الفصل الثانى

الفلسفة الاغريقية

« فى الكلمة السابقة انتهى الكلام عن أرسطو والمشائين والرواقيين ، وعن صلة مذاهبهم الفلسفية بمذهب التثليث الذى وضع أفلاطون أساسه ؛ واليوم نتكلم فى هذه الناحية أيضا عن فلسفة اليهود الالهية والطبيعية »

عندما ظهر فى بلاد الاغريق مذهب الاقانيم الثلاثة بزغ نجم مذهب آخر مشابه له لدى عدد كبير من أمم الشرق ؛ ولكن بينما كان مذهب الاقانيم ذاك عند الاغريق ثمرة تفكير فلسفى ، بسبب أنهم شعب منطق دقيق التفكير ، نجد استمداد المذهب الآخر المشابه له لدى الامم الشرقية من الدين بحكم تدينهم الشديد الذى رجحت كفته على العقل وحده . وقد كان هذا المذهب ناقصا بدائيا غير واضح المعالم إلى حد ما فى أديان الهندوس والمصريين والفرس لكنه اتخذ أخيرا صورة أكثر كمالا فى دين اليهود .

فالعبقرية اليهودية ، السامية البحتة أصلا والمفرّقة بسبب هذا ، لم تفكر غالبا من نفسها فى أن تضع وسائط بين الخالق والمخلوق . وفى خلال مدة الاستعباد الطويلة فى مصر كان شعب إسرائيل متصلا بدين غير غريب عن فكرة التثليث ، أى بدين المصريين القدامى . غير أن الآلهة الثلاثة فى الثالوث المصرى ، وهم أوزوريس وإيزيس وهورس ، أى الأب والأم والابن ، لم يكن لهم الا صلة بعيدة بالأقانيم اليونانية الثلاثة التى سيوجد ما يقابلها فى الكتب المقدسة اليهودية ، حتى إنه لهذا يمكن أن يقال إن أثر التثليث أو الثالوث المصرى فى العقائد الدينية اليهودية مازال موضع شك . ومع ذلك فلا يمكن أن ننكر أن الشعب اليهودى كان عند خروجه من مصر ميالا ميلا كبيرا إلى الوثنية وإلى الشرك(١)

لكن إقامة أربعين سنة فى الصحراء كان من شأنها تقوية وحدة الله فى نفوس بنى إسرائيل ، فكان الكفاح بين التوحيد والشرك ملحوظا ومستمرا . ومن البديهى أن هذا كان حريا به أن

[١] راجع قصة العجل الذهبى سفر الخروج : ٣٢ ، وراجع اللاويين : ١٧ وعدد : ٢٥ ، تثنية : ٣٢ هذا ، والقرآن الكريم فيه على ذلك دلائل كثيرة معروفة . [المعرب]

مكتبتنا العربية

يجعل الأسرائيليين ميالين لتقبل عقيدة التثليث ، التى لايبعد أن يكونوا أخذوا عنها فى مصر فكرة ولو غامضة ، والتى ترمى إلى التوفيق فى ذات الله بين الوحدة والكثرة ؛ أى بين وحدة الذات وكثرة مايظهر عنها ؛وهذا الكفاح استمر حتى بعد إقامة الشعب المختار فى أرض الموعد(١) كما كان مستمرا أيضا فى عصر سبى بابل (٢) ، وبعد عودة المنفيين انتصر التوحيد نهائيا فى شعب إسرائيل (٣) ، ولكن فى الوقت نفسه بدأ مذهب التثليث يتحدد بشكل أكثر وضوحا فى الكتب المقدسة التى ظهرت بعد السبى ، وذلك بأن المنفيين فى بابل كانوا قد اتصلوا (٤) بالعقلية الآرية المجمعة للفرس (٥) وبدين زرادشت (٦) ، وهذا الدين احتوى على الأقل مذهب الكلمة الإلهية مع تصور مشابه نوعا للمذهب الأفلاطونى الخاص بالمثل ، إن لم نقل احتوى نظرية كاملة واضحة للتثليث . ومذهب الكلمة هذا وجدت فيه العقلية اليهودية فكرتها الحقة ، فتقبلته بحمية كبيرة لتجعله أدنى الى الكمال .

والواقع أن العقيدة اليهودية رغم أنها كانت تحت سلطان فكرة الإله السامى ، الإله الواحد الذى تفصل هوة كبيرة بينه وبين العالم الذى خلقه بقدرته العظمى ، قد مالت من زمن بعيد الى أن تميز بين الله وبين القوى المتدرجة التى خلق العالم بواسطتها ، كما يؤثر فيه ويحافظ عليه ويحكمه بواسطتها كذلك . والسبب فى هذه الفكرة هو نفس السبب الذى تأثر به أفلاطون ، أى المحافظة على قداسة الله وعدم تغيره .

وهذه القوى صورت أولا فى شكل ملائكة أو رسل من الله ، ثم تجمعت بعدئذ فى شكل فكرة واحدة ستتخذ لنفسها فيما بعد شخصية يمكن أن يعبر عنها بالحكمة أو العقل الإلهى (٧) ، ومن جهة أخرى ، هذه القوى تظهر فى الخارج فى شكل روح أو نفثة إلهية كما جاء فى الآية الثانية من التوراة وفى مواضع أخرى منها .

وبالاجمال ، فان ملائكة الله ، أعنى تلك القوى التى تكلمنا عنها ، فيها تنبؤ على نحو غامض بفكرة الأقانيم الإلهية . وفى سفر الأمثال المتأخر عن عصر السبى والذى يكشف عن أثر الفارسيين ، وإن كان لا يكشف عن أثر الرواقيين كسفر الحكمة (٨) ، مثلت الحكمة

---

(١) عذرا : ٩ (٢) يلاحظ أنه كان سبيان : الأول عام ٦٧٢ ق م واستمر ثلاث سنوات ، والثانى كان عام ٦٠٦ واستمر الى سنة ٥٣٦ ق م

(٣) رينان ، تاريخ شعب اسرائيل ، باريس الطبعة الخامسة ، ج ٤ ص ٤٩

(٤) هم الذين بقوا فى بابل بعد أن أذن لهم سيروس بالعودة الى أورشليم .

(٥) يذكر رينان أن الأثر الفارسى هو أقوى أثر تأثر به شعب إسرائيل .

(٦) ذلك لأنه فى خلال السبى وقبل غزو سيروس الفارسى لبابل لم يسع المنفيين إلا الاتصال أولا بالدين البابلى أو الكلدانى .

(٧) رافيسون ، بحث فيما بعد الطبيعة عند أرسطو ، ج ٢ ص ٣٤٩ وما يليها .

(٨) راجع رافيسون ، المرجع السابق ، ج ٢ ص ٣٥٦

مكتبتنا العربية

تمثيلا واضحا كمبدأ أزلى أبدى مميز عن الله وغير منفصل عنه فى الوقت نفسه ؛ ففى الاصحاح الثامن نجد الحكمة تقول : « الرب قنانى أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم منذ الأزل مسحت منذ البدء منذ أوائل الأرض لما ثبتت السموات كنت هناك أنا ، لما أسس الأرض كنت عنده صانعا الخ » .

وبالاختصار فإن الله لم يخلق الكون مباشرة ، ولا بذاته السامية العلوية ، بل بواسطة الحكمة التى ليست إلا « أقنوما » إلهيا ثانيا (١) .

وفى الوقت نفسه بزغ فى الأفق ، بشكل أقل غموضا مما فى سفر التكوين ، فكرة أخرى اتحدت اتحادا وثيقا بفكرة النفثة أو الروح الإلهية ، فأصبحت بعدئذ هى فكرة الأقنوم الإلهى الثالث ، أى الروح ؛ ففى نفس سفر الأمثال سميت الحكمة مرتين شجرة الحياة .

وهكذا ، بالرغم من الطابع الأسمى ، لله عند السامبين ، أو على الأحرى بسبب هذا الطابع الأسمى ، تبدو فكرة التثليث بذرة فى أقدم أسفار التوراة ، وهذه النزعة التثليثية القديمة نسبيا برغم غرابتها عن العبقرية السامية المفرقة ، نرى لها تفسيرا فى الاتصالات المتوالية بين شعوب بنى إسرائيل المشركة أصالة والتى كانت مجمعة كثيرا أو قليلا فى أوائل تواريخها ، حتى جاء تأثير المذاهب الفارسية ذات النزعة التثليثية الواضحة فعمل على نمو تلك البذور التى كانت موجودة من قبل .

ثم جاء اتصال جديد بين الدين اليهودى والتفكير الآرى فى أنقى أشكاله ، أى فى شكل الفلسفة الأغريقية ، فاندمج التياران التثليثيان فأفاد ذلك كليهما ؛ إذ أتى التيار اليهودى الفلسفة الأغريقية حمية وقوة دينية ، كما قدمت هذه الفلسفة للدين اليهودى مقابل ذلك ما كان ينقصه من وضوح .

على أن هذا التزاوج لم يؤد الى إدخال عناصر جديدة شعرت بها العقيدة اليهودية أو الفلسفة الأغريقية ، فالتفكير الأغريقى ما كان له إلا أن يتذكر أفلاطون وأرسطو ليعود فيجد فوق الروح العامة والعقل الإلهى المثل والإله الذى لا يُدرك ؛ أما العقيدة اليهودية فلم يكن إلا أن تعود بذكراها الى بعض آيات كتبها المقدسة لتجد تحت إلهها الذى لا يُدرك ، العقل والروح الإلهية ، وبأخذ كل منهما من الأخرى لم يحسا بأن على كليهما دينا يجب أداؤه ، اللهم إلا فى بعض التفاصيل .

* * *

وبديهى أن تقابل هذين التيارين واندماجهما بعضهما فى بعض ، وقد جاء أحدهما من

(١) راجع رينان ، تاريخ شعب بنى إسرائيل ، ج ٥ ص ٣٢٨ - ٣٢٩

مكتبتنا العربية

الغرب والآخر من الشرق ، كان يجب أن يحدث فى الأسكندرية ؛ عاصمة العالم القديم ، وملتقى القارات الثلاث ؛ هنالك فى عهد البطالسة ، وفى نفس الحين الذى كان يبشر المسيح فيه ، ظهر فيلون اليهودى الذى حاول التوفيق بين عقائد دينه والنظر الفلسفى الهيلينى ، فكان أول من توصل الى وضع مذهب للتثليث الدينى فيه تماسك وكمال ، ومن ذلك نجد فى مؤلفاته العناصر الهامة لمذهب التثليث الأسكندرى المستقبل (١) .

لقد كان أول من شرح بإيضاح نظرية الفيض أو الانبثاق الألهى التى تعطى وحدها معنى عميقا لمذهب التثليث ، والتى تقدم أخيرا حل المسألة الكبرى التى ظلت الفلسفة الأغريقية زمنا طويلا واقفة حيرى أمامها ، ألا وهى « كيف يستطيع الله أن يخلق العالم ولا يخرج من كماله ووحدته وعدم تغيره ؟ » إنه أخذ نصا واردا فى سفر الحكمة ، وهو « الحكمة تستطيع كل شىء برغم أنها واحدة ، وهى تجدد كل شىء برغم أنها تبقى هى هى (٢) » ، ثم شرحه بقوله : « إن النار تظل كما هى لاينقص منها شىء بعد إضاءة آلاف من المشاعل » ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالحكمة وبالعلم ؛ « فعلم الأستاذ لم ينقص بأى حال مهما كان عدد التلاميذ الذين اغترفوا منه » . إن من عيوب الأشياء المادية أنها تنقسم وتنفد بالانتقال ، أما ما ليس ماديا كالحكمة فانه على العكس يتزايد دون أن ينقسم . وهذه الطريقة من طرق الانتاج تسمى الفيض .

وبعد مضى نحو قرنين أخذ فلاسفة الأسكندرية الذين عرفوا بالأفلاطونيين المحدثين ، وهم أمونيوس ساكاس وأفلوطين وتلاميذه ، مذهب التثليث عن فيلون ، وبخاصة المبدأ الرئيسى الآتى : إن الله يصل طبيعته إلى الغير دون أن يفقد شيئا منها ؛ فهو يعطى ماله مع استمراره مالكا لما أعطى . وهكذا نشأ الأقنوم الثانى عن الأول (الله) منذ الأزل مع استمراره (أى الأول وهو الله) واحدا كاملا غير متغير ؛ وكذلك نشأ الأقنوم الثالث عن الثانى . وهذا الأقنوم الثالث ، أى الروح الألهية ، هو فى الوقت ذاته روح العالم وأقل كمالا من العقل ، كما أن العقل أقل كمالا من الله . ومن أجل هذا يكون الأقنوم الثالث قابلا للتغير بحكم ضرب من الكثرة ، فضلا عن أنه ينتج جميع الأرواح الخاصة بالعالم عن طريق الفيض دائما ، وأخيرا تكون الأرواح هى التى تنتج أجسامها .

وبهذا المذهب التثليثى الذى وضعه فيلون ، وتناولته الفلاسفة الأسكندريون بالتفصيل

---

[١] وقد بدا أثر التفكير الأفلاطونى على العقلية اليهودية فى الترجمة اليونانية للتوراة المعروفة بالترجمة السبعينية ، إذ حدثت فيها تغييرات فى النص الأصلى متعلقة بالمذاهب الدينية والكونية فى التوراة . والواقع أن المذهب الأفلاطونى هو أقرب المذاهب الأغريقية الى العقائد اليهودية .

[٢] سفر الحكمة اصحاح ٧ آية ٢٧

مكتبتنا العربية

وإصلاح ماقد كان به من عيوب ، زالت كل ثنوية ، وأصبح من المفهوم ما تعب كبار فلاسفة الأغريق من أجله ؛ وهو إخراج كل شيء من مبدأ أول واحد دون المساس بكماله ووحدته وعدم تغيره وقداسته .

* * *

هذه هي المميزات العامة للجزء اللاهوتي من هذا المذهب ، وهو مذهب مثالي حلولي . ولما كان لابد لكل ميتافيزيقا من مغزى ، ولكل نظرية من أن تكون أساسا لعمل ، فان مغزى هذه المثالية الحلولية سيكون حتما مغزى تصوفيا ، وأن هذا العمل الذي تؤدي اليه النظريات أو النظرية التي قام هذا المذهب عليها نجده في محاولة كل روح الصعودَ إلى أعلى أي إلى منبعها الأصلي ومنبع كل شيء ، أي إلى الله الواحد والذي لايدرك بالنظر أو التفكير بل يدرك بالحدس في حالة الانجذاب الذي يجب إعداد النفس له إعدادا طويلا .

وبعد ، فهذا هو المذهب الفلسفي الذي سيرثه العرب أو المسلمون عن الأغريق في القرن التاسع للميلاد ، وهو مذهب لانتصور أكثر مثالية وحلولية وتصوفية وتوحيدا منه . وفيه نجد أن الله فوق الكائنات جميعا وأن الهوة بينه وبين العالم قد زالت بالقول بتدرج كامل من الكائنات الوسطى التي تعمل دائما على الارتفاع نحو أصلها وعلى الاندماج معا في مبدئها المشترك وهو الله المبدأ الأول لكل شيء ؟

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين بالأزهر

« الحديث موصول »

الجود والبخل

قال زياد : كفى بالبخل عارا أن اسمه لم يقع في حمد قط ، وكفى بالجود حمدا أن اسمه لم يقع في ذم قط .

وقال شاعر :

ألا ترانى وقد قطعتنى عذلا ... ماذا من الفضل بين البخل والجود
إن لم يكن ورقا يوما أراح به ... للخابطين فإنى لين العود
لا يعدم السائلون الخير أفعله ... إما نوالا وإما حسن مردود

الاختباط ضرب الشجر ليسقط ورقه لتأكله الماشية — والشاعر يمثل نفسه بشجرة إن لم تعط خابطها ورقا فهي لينة العود لا ترد الخابط بعنف .

مكتبتنا العربية

الموجـــة الاولى

الـكفر والإيمـان

يختلف مؤرخو الفرق فى بيان أول خلاف ظهر بين المسلمين ، ويرى أبو المظفر الاسفراييني صاحب كتاب « التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالـكين » (١) أن أول خلاف ظهر بينهم فى وفاة الرسول حتى قام قوم وقالوا إنه لم يمت ولـكنه رفع كما رفع عيسى ابن مريم ، وحسم أبو بكر ذلك الخلاف كما هو معروف فى التاريخ .

والخـلاف الثانى فى موضع دفنه ، قال قوم إنه يدفن بمكة لأنها مولده وبها قبلته ، وبها مشاعر الحج وبها نزل الوحى ، وبها قبر جـده اسماعيل عليه السلام وقال آخرون إنه ينقل الى بيت المقدس فان به تربة الأنبياء ومشاهدهم . وقال أهل المدينة إنه يدفن فى المدينة لأنها موضع هجرته ، وأهلها أهل نصرته .

والثالث اختلافهم فى الأمامة ، فقالت الأنصار منا إمام ومنكم إمام ، وانتهى بخـلافة أبى بكر .

ويرى أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى صاحب « مقالات الاسلاميين واختـلاف المصلين » (٢) أن « أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبيهم اختلافهم فى الإمامة ولم يحدث خلاف غـيره فى حياة أبى بكر وأيام عمر الى أن ولى عثمان ، وأنكر قوم عليـه فى آخر أيامه أفعالا كانوا فيما نقموا عليه من ذلك مخطئين . . . ثم قتل رضوان الله عليه وكانوا فى قتله مختلفين » ، ثم يمضى الأشعرى فيذكر الخـلاف على خلافة علىّ ، ثم الخلاف فى أيامه فى أمر طلحة والزبير ، والخـلاف بينه وبين معاوية ، والقتال بينهما فى صفين ، واستعانة معاوية برأى عمرو بن العاص الذى أشار بالتحكيم ، وانقسم أصحاب على فيما بينهم ، وكفره بعضهم لأنه قبل التحكيم فسموا خوارج .

وأغلب كتب الفرق تجرى على هذا النحو من سرد هذه الأحداث التاريخية التى تنتهى بمقتل على ، ثم تفصل الـكلام على الشيعة والخوارج وما الى ذلك .

والمفهوم من كلام الاسفراييني أنه يجعل مبدأ التفرق منذ مقتل عثمان ، لأن « الخلاف لا يكون خطـراً إلا إذا كان فى أصـول الدين ، ولم يكن اختلاف بينهم فى ذلك ، بل كان اختلاف من يختلف فى فروع الدين مثل الفرائض ، فلم يقع خلاف يوجب التفسيق والتبرى .

---

(١) مطبعة الأنوار ١٠٤٠ ـ الطبعة الأولى ـ ص ١٢ (٢) استانبول ـ مطبعة الدولة ١٩٢٩ الجزء الأول ص ٢،٣

مكتبتنا العربية

هكذا جرى الأمر على السداد أيام أبي بكر وعمر وصدرا من زمن عثمان . ثم اختلف في أمر عثمان وخرج عليه قوم منهم فكان من أمره ما كان » (١) .

ونحب أن نقف قليلا عند هذا الكلام الذى يثبته أبو المظفر ، ففيه نظر : ذلك أنه يعد الخلاف على الفرائض من فروع الدين ، بينما رأى أبو بكر وجوب حرب المرتدين الذين حاولوا تعديل تلك الفرائض . وعندنا أن التفرقة بين أصول الدين وفروعه تفرقه اعتبارية لم تظهر إلا بعد استقرار الفقه فى القرن الثانى . ونحن الآن فى القرن الأول من الهجرة ، لا نعرف شيئا من هذه الاصطلاحات الفقهية والأصولية . وإنما الذى يعنينا أن نسجله هو المشاهد الملموس من أن الاسلام دين حديث ، كان همه الأكبر محاربة الوثنية وأهل الشرك ، وقد نجح فى ذلك نجاحا عظيما حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً . ولكن فريقا من العرب بعد موت النبي حاولوا تعديل بعض أركان الاسلام ، فسماهم أبو بكر المرتدين ، وأوجب حربهم لأنه عدهم كفاراً ، حتى قضى على تلك الفتنة ، وعاد العرب الى حظيرة الاسلام (٢) .

وشاع بعد ذلك القول فى المؤمن والكافر . وقد كان ذلك البحث جدًا يأخذ على الناس تفكيرهم وقلوبهم وعقائدهم مما يدفع بهم الى الحرب والجهاد فى سبيل ما يعتقدون .

وأول مقالة فى هذا الصدد بعد الردة تكفير عثمان ، لأنهم أخذوا عليه مسائل دعت فى نظرهم الى الثورة والخروج عليه وقتله . والمقالة الثانية هى الخروج على على ومعاوية ، ويصطلح التاريخ على تسمية أصحابها بالخوارج .

والخلاصة أنه بعد موت النبي ظهرت موجتان قويتان تهتم بالكفر والايمان ، والثانية تتجه نحو الامامة . ونشأت عن الموجة الأولى فرق الخوارج ، وعن الثانية فرق الشيعة .

وكثير من كتب الفرق الاسلامية يقدمون القول فى الشيعة على الخوارج .

ونحن نرى غير رأيهم لأسباب ، منها أن القول بالامامة الأغلب فيه السياسية ، والآراء العقلية التى يقول بها الشيعة تخدم القول بالامامة وهو قول سياسى قطعا . ومنها أن القول بالكفر والايمان كان أسبق فى الزمان من القول بالامامة . والقرآن زاخر بالآيات التى تصف الكفار والمنافقين والمؤمنين . وفى صدر سورة البقرة تفصيل لذلك الوصف . هذا الى أن الشيعة لهم رأى فى الكفر والايمان لا ينفصل عن رأيهم فى الامامة .

لهذا رأينا أن نجعل الموجة الأولى فى الكفر والايمان ، وأن نجعل الثانية فى التشيع .

---

(١) التبصير ص ١٠٣ (٢) مجلة الأزهر : الزكاة فرض كالصلاة حددت وضبطت على عهد رسول الله وانعقد عليها الاجماع ، فلا يجوز فيها تعديل ، والذين قاتلهم أبو بكر أبوا تأديتها فكان لابد له من مقاتلتهم كما كان لابد له من مقاتلة تارك الصلاة .

مكتبتنا العربية

وأجمعت الخوارج على إكفار على بن أبي طالب أن حكّم . وهم مختلفون هل كفره شرك أم لا ، وأجمعوا على أن كل كبيرة كفر إلا (النجدات) (١) فانها لا تقول ذلك ، وأجمعوا على أن الله يعذب أصحاب الكبائر عذابا دائما إلا النجدات (٢) .

وجاء فى كتاب التبصير فى الدين ما نصه :

« اعلم أن الخوارج عشرون فرقة ، وكلهم متفقون على أمرين لا مزيد عليهما فى الكفر والبدعة : أحدهما أن عليا وعثمان ، وأصحاب الجمل ، والحكمين ، وكل من رضى بالحكمين كفروا كلهم . والثانى أنهم يزعمون أن كل من أذنب ذنبا من أمة محمد فهو كافر ويكون فى النار خالدا مخلدا ، إلا النجدات منهم فانهم قالوا إن الفاسق كافر على معنى أنه كافر نعمة ربه (٣) »

وأول فرق الخوارج « المحكمة الأولى » . سموا كذلك لأنهم رفضوا التحكيم بين علىّ ومعاوية وقالوا « لاحكم إلا لله » . وقد استمع جماعة ممن كانوا مع على إلى هذا الكلام ، واستقرت فى قلوبهم تلك الشبهة ، وخرجوا إلى حروراء ، وكانوا اثنى عشر ألف رجل من المقاتلة ، فتوجه على إليهم فى جيش وقال لهم : ياقوم : ماذا نقمتم منى حتى فارقتمونى لأجله ؟ قالوا : قاتلنا بين يديك يوم الجمل ، وهزمنا أصحاب الجمل ، فأبحت لنا أموالهم ، ولم تبح لنا نساءهم وذراريهم ، وكيف تحل مال قوم وتحرم نساءهم وذراريهم . وقد كان ينبغى أن تحرم الأمرين أو تبيحهما لنا . فاعتذر علىّ بأن قال : أما أموالهم فقد أبحتها لكم بدلا عما أغاروا عليه من مال بيت المال الذى كان بالبصرة قبل أن وصلت إليهم ، ولم يكن لنسائهم وذراريهم ذنب فإنهم لم يقاتلونا وكان حكمهم حكم المسلمين ومن لم يحكم عليه بالكفر من النساء والولدان لم يجز سبيهم واسترقاقهم . وبعد لو أبحت لكم نساءهم ، من كان منكم يأخذ عائشة فى قسمة نفسه ؟ . ثم حاجوه فى أمور أخرى فاقتنع منهم فريق وأصر فريق على القتال ، ونشبت الحرب بينهما .

قال أبو المظفر : هذه قصة المحكمة الأولى . وهم يكفرون بتكفيرهم عليا وعثمان وتكفيرهم فساق أهل الملة . وبقيت الخوارج على مذهب المحكمة الأولى الى أن ظهرت فتنة الأزارقة (٤) . وهم أتباع نافع بن الأزرق ، ولهم مقالات فارقوا بها المحكمة الأولى وسائر الخوارج : منها أنهم يقولون إن من خالفهم من هذه الأمة فهو مشرك . والمحكمة كانوا يقولون إن مخالفهم كافر ولا يسمونه مشركا . ومما اختصوا به أيضا أنهم يسمون من لم يهاجر الى ديارهم من موافقيهم مشركا ، وإن كان موافقا لهم فى مذهبهم ، ويزعمون أن أطفال مخالفيهم مشركون وأنهم يخلدون فى النار .

قال أبو الفرج صاحب الأغانى « إن نافع بن الأزرق لما تفرقت آراء الخوارج ومذاهبهم فى أصول مقالتهم أقام بسوق الأهواز وأعمالها لا يعترض الناس ، وقد كان متشككا فى ذلك .

---

(١) أصحاب نجدة بن عامر الحنفى من اليمامة وهو أحد الخوارج . (٢) مقالات الاسلاميين ص ٨٦ .
(٣) التبصير ص ٢٦ . (٤) التبصير ص ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨

مكتبتنا العربية

فقالت له امرأته : إن كنت كفرت بعد إيمانك وشككت فيه ، فدع نحلتك ودعوتك : وإن كنت قدخرجت من الكفر والايمان فاقتل الكفار حيث لقيتهم وأثخن فى النساء والصبيان . فقبل قولها ، واستعرض الناس وبسط سيفه ، فقتل الرجال النساء والولدان وجعل يقول : إن هؤلاء إذا كبروا كانوا مثل آبائهم . وإذا وطىء بلدا فعل مثل هذا به ، الى أن يجيبه أهله جميعا ويدخلوا ملته ، فيرفع السيف ويضع الجباية فيجبى الخراج . فعظم أمره واشتدت شوكته ، وفشا عماله فى السواد (١) » .

وقد غلب الأزارقة على بلاد الأهواز وفارس وكرمان فى أيام عبد الله بن الزبير ، فأرسل عامله بالبصرة لقتاله فقتلهم الخوارج ، ثم جعل قتالهم الى المهلب بن أبى صفرة . واستمرت فتنتهم الى زمان عبد الملك بن مروان الى أن طهر جند الحجاج جميع الأزارقة .

قال الاسفراييني « إن أهل السنة مجتمعون فيما بينهم لا يكفر بعضهم بعضا ، وليس بينهم خلاف يوجب التبرى والتكفير . فهم إذن أهل الجماعة قائمون بالحق . والله تعالى يحفظ الحق وأهله كما قال تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » قال المفسرون : أراد به الحفظ عن التناقض ، وما من فريق من المخالفين إلا وفيما بينهم تكفير وتبر ، يكفر بعضهم بعضا ، كما ذكرنا عن الخوارج والروافض والقدرية ، حتى اجتمع سبعة منهم فى مجلس واحد فافترقوا على تكفير بعضهم بعضا (٢) » .

وقال الأشعرى فى حكاية جملة قول أصحاب الحديث وأهل السنة « لا يكفرون أحداً من من أهل القبلة بذنب يرتكبه كنحو الزنا والسرقة وما أشبه ذلك من الكبائر . وهم بما معهم من الإيمان مؤمنون وإن ارتكبوا الكبائر (٣) » .

دكتور أحمد فؤاد الاهوانى

(مجلة الأزهر) . الخوارج طوائف انشقوا عن الجماعة الاسلامية ، استغواهم رجال من أهل المطامع واللسن ، وأحدثوا أحداثا لم تؤثر فى نهضة الاسلام أقل تأثير . وقد استوجب ظهورهم أن الاسلام يطلق للناس حرية التفكير والبحث . ومستعرض تاريخهم يلاحظ أنهم بين غلاة دفعهم الطيش الى عقائد واضحة البطلان ، وبين ذوى مطامع ساقهم حب السلطان الى التدليس على صغار العقول حتى انقادوا اليهم . وظهورهم لم يمس جوهر الاسلام فى شىء ، فهم كالبثور تعترى بعض الأجسام ثم تدفعها سلامة البنية . وسيتجلى ما قلناه للقارىء عند مايشرع الدكتور الفاضل فى عرض مذاهبهم ؟

(١) الأغانى الجزء السادس طبعة دار الكتب المصرية ص ١٤٢ (٢) التبصير ص ١١٥ (٣) مقالات الاسلاميين ص ٢٩٣ ـ الجزء الأول .

مكتبتنا العربية

النحت فى كلام العرب

وقعت إلينا فى العربية ألفاظ مثل السبحلة والحمدلة والحيعلة تفيد كلاما من مادتها . فالسبحلة قول سبحان الله ، والحمدلة قول الحمد لله ، والحيعلة قول حيَّ على الصلاة ، وقد وردت هذه الكلمة الأخيرة فى قول الشاعر :

أقول لها ودمع العين جار ألم يحزنك حيعلة المنادى ؟

(وظاهر أن هذا الشاعر إسلامى) .

وقد عنى علماء العربية بهذا الضرب من الكلم ، ورجعوا نشأته الى ما أسموه النحت .

وفسروا النحت بأن يؤخذ من كلمتين أو أكثر كلمة تدل على ما صيغت منه ، فيحذف بعض حروف الكلمتين أو الكلم ، ويصاغ اللفظ الحادث على منهاج الأبنية الرباعية أو الخماسية فى الأسماء ، والرباعية فى الأفعال ، مع الصلاحية للحاق الزيادة كالأبنية الأصلية . ولا يكاد يكون ذلك فى الأبنية الثلاثية على ما يأتى بيانه ، وقد يكون المنحوت ثنائيا فى الأدوات ، وسيأتى التمثيل له .

وقد جاء النحت فى أنواع الكلم الثلاثة : ففى الأسماء نحو شَقَحْطَب ، يقال للكبش شقحطب إذا كان ذا قرنين منكرين كأن القرن شق حطب . وفى الأفعال نحو سَمْعَلَ إذا قال السلام عليكم .

وفى الحروف نحو لن الناصبة ، أصلها عن الخليل لا أن ، فإذا قلت لن ألعب فالأصل لا أن ألعب فاختزلت الكلمتان وجاء منه لن بطريق النحت ، ولكن المشددة النون أصلها عند الفراء لكنْ إنْ ، فطرحت الهمزة للتخفيف ، ونونَ لكن للساكنين . ويقول بعض الكوفيين إنها مركبة من لا وإن والكاف الزائدة ، وحذفت الهمزة تخفيفا .

الحذف فى النحت : الأكثر أن يتناول الحذف الأصلين أو الأصول التى هى مادته ، وقد يكون فى أحدها نحو البسملة تناول الحذف الجزء الثالث (وهذا مثال لما نحت من أكثر من كلمتين) . وقد يحذف بعض الأصول برمته إذ كان فى الباقى ما ينبئ عنه ، نحو المشكنة أى قول ما شاء الله كان ، يقال : أكثر فلان من المشكنة ، والكبتعة أى قول كبت الله عدوك ، والسمعلة أى قول السلام عليكم ، حذف الضمير للمحيا إذ كان مفهوما مع حذفه . وسيأتى الحذف فى النحت للنسب .

ما يشبه النحت وليس به : ينبغى ألا يشتبه النحت بالتركيب المزجى ، فان التركيب المزجى

مكتبتنا العربية

يبقى فيه الأصل كاملا غير منقوص ، ولا يلتزم أن يكون على مثال الأبنية ، كما فى معد يكرب وبعلبك .

وقد أدخل بعض العلماء فى النحت ما يمت إليه ببعض الصلة ولكن ليس فى الحقيقة إياه :

١ — فيذكر السيوطى (١) فى النحت ما حكى عن الفراء أن بعض العرب قال : معى عشر فاحدُهن لى أى صيرهن أحد عشر . وظاهر أن هذا ليس من النحت فى شىء إذ وقع الاقتصار على إحدى الكلمتين من غير أن يكون فى التأليف ما يدل على المحذوف ، وإنما يعلم من المقام .

٢ — ويقول الصبان فى مبحث الموصول : « وبلحرث أصله بنو الحرث ، وبعضهم يستعمله هكذا ثم ينحت من الكلمتين كلمة واحدة كما نحت من عبد القيس عبقى فى النسب » . وكأنه يقرؤه بَلَحْرَث مثلا على زنة سفرجل ، وما هكذا يقرأ إنما هو بلحارث ، وترى أن فيه حذف النون من بنو ، وهذا الحذف يجرى فى هذه الكلمة إذا أضيفت الى مقرون بأل القمرية ، وفى اللسان فى حرث : « وقولهم الحارث لبنى الحارث بن كعب من شواذ الادغام ؛ لأن النون واللام قريبا المخرج ، فلما لم يمكنهم الادغام لسكون اللام حذفوا النون كما قالوا مست وظلت ، وكذلك يفعلون بكل قبيلة تظهر فيها لام المعرفة مثل بلعنبر وبَلْهُجيم ، فأما إذا لم تظهر اللام فلا يكون ذلك » . وقوله من شواذ الادغام يريد أنه كان ينبغى هنا الادغام لما ذكر من تقارب النون واللام ، ولكن لما منع من ذلك سكون الثانى ناب عن الادغام الحذف ، فلم يجر هذا على وجه الادغام فأشبه الشاذ فيه . وفى المزهر (٢) . وقد نقل عبارة الصحاح وهى عبارة اللسان السابقة : من شواذ التخفيف . وكأن هذا إصلاح منه للعبارة وقد عرفت توجيهها . وقد منع أن يكون هذا من النحت أنه لم يصغ صياغة المفردات ، وأنه لا يزال جاريا فى حكم المركب ، ومن ثم يلتزم فى الجزء الثانى الجر بالاضافة .

٣ — وجعل الأمير فى كتابته على نظم غرامى صحيح فى مصطلح الحديث قولهم عنعن الحديث والمعنعن من الحديث من قبيل النحت . وظاهر أنه مصوغ من عن عن فلا حذف فيه ، وإنما هو من قبيل حكاية الصوت .

وقد سار على هذا النحو الأستاذ المعلوف فى مقاله فى النحت ، وقد نشره فى جريدة الأهرام الصادرة فى ٩ يناير سنة ١٩٣٩ — فذكر من النحت المؤنن فى اصطلاح المحدثين ، وهو الذى يقول فيه الراوى : حدثنا فلان أن فلانا قال كذا ، وعد منه البقبقة لصوت الكوز فى الماء ، والغطمطة لصوت غليان القدر ، وذكر ألفاظا من هذا القبيل .

---

(١) المزهر ١/٢٨٦ . (٢) ١ — ٢٧٨ .

مكتبتنا العربية

٤ — وذكر الأستاذ المعلوف فى مقاله من النحت الخميس للجيش نحت من خمسة خمسة ، ولا وجه لهذا ؛ فالجيش سمى خميسا لأنه خمس فرق : المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة ، وقيل سمى بذلك لأنه تخمس فيه الغنائم . فترى أنه من مادة واحدة ولفظ واحد وهى خمس وما هكذا يكون النحت . ولو أنه ذكر نحو ثُلاث من ثلاثة ثلاثة ورباع من أربعة أربعة لكان له بعض العذر ، وهذا يسمى عدلا لا نحتا . وذكر منه الكُنتى وهو الشيخ المسن وهو نسبة الى كنت إذ يكثر من ذكر ماضيه ، وليس فيه حذف شىء . وذكر أيضا البلقع للأرض لا نبات فيها ، وعنده أن الأصل بلا قاعد ، وهو بعيد ، فإن شأن النحت أن يدل فى قرب على أصله .

الغرض من النحت : النحت ضرب من الاختصار الذى تميل إليه العرب ؛ إذ يشار بالكلمة الى الكلمتين أو الكلمة ، وهو قد يشير الى كلام تام كما فى السمعلة والكبتعة ، وقد يشير الى مركب ناقص نحو شقحطب ومشلوز ، وهو المشمشة الحلوة المخ ، قال الأزهرى (١): أخذ من المشمش واللوز .

وقد يدعو الى النحت التظرف . فمحمود بن الحسين الأديب الملقب كشاجم (توفى سنة ٢٥٠ هـ) سئل : لم لقب نفسه هذا اللقب ؟ فقال (٢) : الكاف من كاتب ، والشين من شاعر ، والألف من أديب ، والجيم من جواد ، والميم من منجم ؛ وقيل إنه طلب الطب حتى مهر فيه وصار أكبر علمه فزيد فى لقبه الطاء من طبيب ، فصار طكشاجم ولكنه لم يشتهر ، وكأن ذلك لأنه ليس على نهج الأبنية العربية .

وقد أراد بعض المحدثين أن ينتفع به فى صوغ المصطلحات العلمية ، وصاغ جرجس همام (٣) للطير الذى يأكل اللحم والنبات كلمة اللحنبى ، وللحيوان الذى يعيش فى البحر والبر البرمائى ، وقياس ما سيأتى أن يقال البرمئى .

استعمال النحت : يبدو أن استعمال العرب له قليل ، حتى إن أبا العلاء المعرى فى عبث (٤) الوليد يقول وقد أورد أمثله للنحت : « ولا يعرف مثل هذه الأشياء فى الكلام القديم ، وإنما هى محدثات . ويجوز أن يكون المنقول من كلام الجاهلية ليس فيه شىء من هذا النوع » . وقد جمع الظهير (٥) الفارسى ما وقع فى ألفاظ العرب على مثال شقحطب فى نحو عشرين ورقة ، وسماه كتاب تنبيه البارعين على المنحوت من كلام العرب . ولم يقع إلينا هذا الكتاب حتى نقف على ما فيه ، ونعلم هل اقتصر على مثال شقحطب أى ما جاء منحوتا على هذا الوزن ،

(١) لسان فى شلز (٢) شذرات الذهب ٣ / ٣٧ (٣) المقتطف ، المجلد ١١ ص ٣٨٤ سنة ١٨٨٧
(٤) ص ٢١٥ (٥) هو الحسن بن الخطير توفى بالقاهرة سنة ٥٩٨ ، عن ياقوت ٨ / ١٠٠ .

مكتبتنا العربية

أو أنه جمع فيه كل ما جاء على نهج النحت . وذكر الثعالبي فى فقه اللغة (فى الباب العشرين) فصلا فى سياقة أقوال متداولة فى هذا الباب : فذكر البسملة والسبحلة حكاية قول سبحان الله ، والهيللة حكاية قول لا إله إلا الله ، والحوقلة حكاية قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، والحمدلة حكاية قول الحمد لله ، والحيعلة حكاية قول المؤذن : حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، والطلبقة حكاية قول أطال الله بقاءك ، والدمعزة حكاية قول أدام الله عزك ، والجعفلة حكاية قول جعلت فداك . وتراه ذكر الحوقلة بتقديم القاف على اللام ، وينكر هذا ابن دحية (١) ويذكر أن الوارد الحولقة ، فأما الحوقلة فمشية الشيخ الضعيف كما قال :

يا قـوم قـد حوقلت أو دنوت وبعـد حيقال الرجال الموت

وابن دحية تابع فى هـذا للجوهرى . وقال ابن الأثير كما فى اللسان : « هـكذا ذكرها الجوهرى بتقديم اللام على القاف ، وغيره يقول الحوقلة بتقديم القاف على اللام » وقد أورد صاحب اللسان شاهدا للحولقة قول الشاعر :

فداك من الأقـوام كل مبخل يحـولق إما ساله العرف سائل

والطلبقة هكذا ، وقد نسب الى الشهاب الخفاجى فى شفاء الغليل أنه سطرها : الطبلقة ونسب فى ذلك الى السهو . والجعفلة هكذا باللام ، وقد ذهب المعرى الى هذا وجعل اللام فى الجعفلة اللام فى جعل ، وجعل هذا من الافتنان فى النحت وعدم التزام الترتيب فى الحروف قال : « (٢) وقد افتنوا فى التعبير لأن قولهم جعفله إذا قال جعلت فداه قدمت فيه الفاء على الـلام وإنما ينبغى أن يقال جعلفهُ » . وابن دحية يقول : « الجعفدة جعلت فداك ، وقولهم الجعفلة باللام خطأ » : وذكر ابن دحية مما ورد منحوتا الحسبلة قول حسبى الله .

وقد حكى العلماء ألفاظا غير ما ذكر ، فمن ذلك عُلَّيب لموضع بتهامة ، قال الزمخشرى (٣) أظن أن قوما كانوا فى هذا الموضع نزولا فقال بعضهم لأبيه عُلْ يا أب ، فسمى به المكان . وهـو ملحق إن صح بجخدب . ويقرب منه ما قيل فى بلبيس المدينة المصرية ، فقد قال ابن الجزرى فى طبقات القراء (ج ٢ ص ٢٧) فى ترجمة قسيم الظهراوى : « من ساكنى أبى البيس التى يقال لها اليوم بلبيس » . منحوتة من فيلو أى محب وسوفا أى الحكمة فى لسان الآغريق ، وسامرا لمدينة أحدثها المعتصم بالعـراق وأصلها سُرَّ من رأى ، والأقرب فيها أنها مختصرة من ساء من رأى وهى إحدى اللغات فيها ، وقد قال (٤) بذلك بعض الباحثين . ومنه الحزمرة الأخذ بالحزم من الحزم والرأى ، والمحبرم مرقة حب الرمان ، والحبرمة اتخاذها من حب الرمان ، وقد حدث فى استعمال المؤلفين الفنقلة من قولهم فإن قيل . وقال بعضهم (٥) فى الهيولى إنها

(١) المزهر ٢٨٦/١ . (٢) عبث الوليد ٢١٥ . (٣) معجم البلدان فى العيب . (٤) معجم البلدان فى مادتها . (٥) شفاء العليل .

مكتبتنا العربية

منحوتة من هيئة أولى فجعلت على فعولى ، والصواب أنه لفظ يونانى . وتطلق بمعنى الأصل والمادة ، وفى اصطلاح الفلاسفة هى جوهر فى الجسم قابل للاتصال والانفصال محل للصورتين النوعية والجسمية . ومنه الفذلكة وهى جملة الحساب . ويقال فذلك حسابه أى أنهاه من قوله حين يجمل الحساب بعد تفصيله . فذلك كذا وكذا . وقال المتنبىء يمدح ابن العميد :

نسقوا لنا نسق الحساب مقدما وأتى فذلك إذ أتيت مؤخرا

ومما جاء منحوتا كلمة ليس من أخوات كان ، فأصلها لا أيس أى لا وجود ، تقول العرب : جىء به من أيس وليس أى من حيث هو وليس . قال الليث : أيس كلمة قد أميتت ، إلا أن الخليل ذكر أن العرب تقول جىء به من حيث أيس وليس لم تستعمل أيس إلا فى هذه الكلمة وإنما معناها كمعنى حيث هو فى حال الكينونة والوُجد ، وقال إن معنى لا أيس أى لا وجد . وقال ابن الأنبارى فى نزهة الألباء فى ترجمة الجواليقى : « وحكى (يريد الجواليقى شيخه) عن بعض النحويين أنه قال : أصل ليس لا أيس ، فقلت : هذا الكلام كأنه من كلام الصوفية . فكأن الشيخ أنكر على ذلك ، ولم يقل فى تلك الحال شيئا . فلما كان بعد ذلك بأيام وقد حضرنا على العادة قال : أين ذاك الذى أنكر أن يكون أصل ليس لا أيس ؟ أليس لا تكون بمعنى ليس ؟ فقلت : ولم إذا كان لا بمعنى ليس يكون أصل ليس لا أيس ؟ فلم يذكر شيئا » . وقد غاب عن أبى منصور حجة النحوى الذى ذهب الى هذا القول ، وهو قول العرب : جىء به من أيس وليس ، فقد علمنا منه أن الأيس الوجد ، فليس مركبة منه ومن أداة النفى المعروفة وهى لا ، وبذلك تعلم أنها قد استعملتها العرب استعمال الأفعال . ولا يستغرب مع هذا أن تدل على نفى الحال لا على نفى المضى كما هو سنن الأفعال . وكذلك ليت أصلها لا أيت ، وأيت هى فى الأصل أيس . وكذلك لات من تفرعات هذا الأصل ، ويقول النحويون : أصلها لا فأضيف اليها التاء لتأنيث اللفظ كربت وثمت ، وما تقدم من القول بالنحت فيها أشبه بالصواب ؟

محمد على النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

ما زرعت تحصد

لابن عبد ربه صاحب العقد الفريد الامام المشهور فى الأدب شعر جيد منه قوله :

يا من تجلد للزما ن أما زمانك منك أجلد
سط نهاك على هوا ك وعد يومك ليس من غد
إن الحياة مزارع فازرع بها ما شئت تحصد
والناس لا يبقى سوى آثارهم والعين تفقد
أو ما سمعت بمن مضى هذا يذم وذاك يحمد

مكتبتنا العربية

علوم القرآن

— ٣ —

الناسخ والمنسوخ :

علم الناسخ والمنسوخ من القرآن يتصل اتصالا وثيقا بعلم أحكام القرآن ، لأن النسخ لا يكون إلا فى آيات الأحكام كما صرح بذلك الحافظ جلال الدين السيوطى ، ونص عبارته : لا يقع النسخ إلا فى الأمر والنهى ولو بلفظ الخبر ، أما الخبر الذى ليس بمعنى الطلب فلايدخله النسخ ومنه الوعد والوعيد . وإذا عرفت ذلك عرفت فساد صنع من أدخل فى كتب النسخ كثيرا من آيات الأخبار والوعد والوعيد اهـ .

وحينما يتجه الباحث الى علم الناسخ والمنسوخ عليه أن يواجه المسائل الآتية :

١ — حقيقة النسخ .

٢ — نسخ القرآن بالقرآن وبالسنة .

٣ — بيان سور القرآن التى وقع فيها الناسخ والمنسوخ أو أحدهما .

٤ — ما نسخ حكمه وتلاوته أو أحدهما .

٥ — المؤلفات التى وضعت فى الناسخ والمنسوخ .

وسنتكلم بايجاز عن كل مسألة من هذه المسائل بقدر ما يتسع له المقام .

أما حقيقة النسخ لغة فهو مشترك لفظى بين المعانى الآتية :

الإزالة ، التبديل ، التحويل ، النقل . ويشهد للأول قوله تعالى : « فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته » . وللثانى قوله تعالى : « وإذا بدلنا آية مكان آية » . والتحويل مثل تناسخ المواريث بمعنى تحويل الميراث من واحد الى واحد . والنقل مثل : نسخت الكتاب إذا نقلت ما فيه حاكيا للفظه وخطه . قالوا والنسخ بالمعنى الأخير لا يقع فى القرآن . وأجازه النحاس واستشهد له السعيدى بقوله تعالى : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » .

٢ — اختلف العلماء فى نسخ القرآن بالسنة ؛ فمنعه بعضهم ورأى أن القرآن لا ينسخ إلا بقرآن ، عملا بقوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » ولا يكون خيرا من القرآن ولا مثله إلا قرآن . وأجاز البعض الآخر نسخ القرآن بالسنة ؛ لأنها هى أيضا من عند الله ؛ قال تعالى : « وماينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » . ويرى بعض الأئمة أن السنة إن كانت بأمر الله من طريق الوحى نسخت القرآن ، وإن كانت باجتهاد

مكتبتنا العربية

لا تنسخ القرآن . ويرى الامام الشافعي رضى الله عنه أن السنة إن كانت متواترة نسخت القرآن وإلا فلا تنسخ . ومما يروى عنه قوله : « حيث وقع نسخ القرآن بالسنة فمعها قرآن عاضد لها ، وحيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمعه سنة عاضدة له ليتبين توافق القرآن والسنة ».

وقد أطنب علماء أصول الفقه فى هذه المسألة فذكروا الخلاف وحرروه ، وأقاموا الأدلة والبراهين .

٣ — سور القرآن باعتبار الناسخ والمنسوخ أقسام : قسم ليس فيه ناسخ ولا منسوخ ، وهو ثلاث وأربعون سورة : الفاتحة ، ويوسف ، ويس ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والصف ، والجمعة ، والتحريم ، والملك ، والحاقة ، ونوح ، والجن ، والمرسلات ، والنبأ ، والنازعات ، والانفطار ، وثلاث بعدها ، والفجر وما بعدها الى آخر القرآن ، ما عدا التين والعصر والكافرين .

وقسم فيه الناسخ والمنسوخ وهو خمس وعشرون : البقرة وثلاث بعدها ، والحج ، والنور ، والفرقان ، والشعراء ، والأحزاب ، وسبأ ، والمؤمن ، والشورى ، والذاريات ، والطور ، والواقعة ، والمجادلة ، والمزمل ، والمدثر ، والكوثر ، والنصر .

وقسم فيه الناسخ فقط وهو ستة : الفتح ، والحشر ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ، وسبح .

وقسم فيه المنسوخ فقط وهو الأربعون الباقية .

قال العلماء : وفى هذا التقسيم نظر .

٤ — النسخ قد يكون للتلاوة والحكم معا ، كما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان فيما أنزل « عشر رضعات معلومات » فنسخن بخمس معلومات ، فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن مما يقرأ من القرآن » . وقد تكلم العلماء فى قولها : « وهن مما يقرأ من القرآن » فان ظاهره بقاء التلاوة وليس كذلك . وأجابوا بأن معنى فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم : قارب الوفاة ، أو أن التلاوة نسخت ولم يبلغ ذلك كل الناس فاستمر البعض يقرأها . وقال مكى : هذا المثال فيه المنسوخ غير متلو والناسخ غير متلو ولا أعلم له نظيرا .

وقد يكون النسخ للحكم دون التلاوة ، وهذا هو المشهور ، وهو الذى ألفت فيه الكتب ، وهو الذى ينصرف اليه النسخ عند الاطلاق .

والواقع أنه قليل جدا ، على ما يراه المحققون من الذين ألفوا فيه . وقد أكثر بعضهم دون تحقيق فلم يفرق بين التخصيص والنسخ ، فذكر آيات كثيرة فى باب النسخ وهى من باب التخصيص ، بل ذكر بعضهم آيات ليست من النسخ ولا التخصيص فى شىء ، مثل قوله تعالى :

مكتبتنا العربية

« ومما رزقناهم ينفقون » « وأنفقوا مما رزقناكم » قالوا إنهما منسوختان بآية الزكاة وليس كذلك . وقوله تعالى « أليس الله بأحكم الحاكمين » قيل إنها مما نسخ بآية السيف وليس كذلك لأنه تعالى أحكم الحاكمين أبدا لا يقبل ذلك النسخ ، قال : وإن كان معناه الأمر بالتفويض وترك المعاقبة . وقوله تعالى فى سورة البقرة : « وقولوا للناس حسنا » عده بعضهم من المنسوخ بآية السيف .

وغلطه ابن الحصار بأن الآية حكاية عما أخذه على بنى إسرائيل من الميثاق ، فهو خبر فلا نسخ فيه .

أما الآيات التى خصصت باستثناء أو غاية مثل قول الله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، إلا الذين آمنوا » « والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا » « فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره » فهى من باب التخصيص لا من باب النسخ . وقد حرر ذلك القاضى أبو بكر بن العربى .

٥ — المؤلفات :

الناسخ والمنسوخ ، لابن خزيمة ، وهو الحافظ المظفر بن الحسين بن زيد بن على الفارسى .

والناسخ والمنسوخ ، لابن نصر المفسر ، وهو العلامة أبو القاسم هبة الله بن سلامه ابن نصر بن على الضرير المفسر البغدادى ، المتوفى سنة ٤١٠ هـ .

والناسخ والمنسوخ ، لابن جعفر النحاس ، وهو العلامة أبو جعفر محمد بن احمد بن إسماعيل المرادى النحوى المصرى ، المتوفى سنة ٣٣٨ هـ .

والناسخ والمنسوخ ، للاسفرايني ، وهو العلامة أبو عبد الله العامرى الشفعوى .

والناسخ والمنسوخ ، للعامرى ، وهو القاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الله العامرى .

والناسخ والمنسوخ ، لابن حزم الأندلسى المشهور .

وهذه المؤلفات محفوظة بالمكتبة الأزهرية والاطلاع عليها سهل ميسور .

وهناك مؤلفات أخرى فى الناسخ والمنسوخ لمشاهير المؤلفين ، منهم العلامة أبو عبيدة القاسم بن سلام الجمحى ، وأبو سعيد عبد القاهر بن طاهر التميمى ، المتوفى سنة ٤٢٩ هـ . والحافظ جلال الدين أبو بكر عبد الرحمن السيوطى ، المتوفى سنة ٩١١ هـ وغيرهم

وكنت وعدت حضرات القراء ببيان المؤلفات فى علوم القرآن على اختلافها ، والمقالان السابقان كانا خاصين بعلم أحكام القرآن ، ولم نذكر المؤلفات فيهما ، فنذكرها الآن :

مكتبتنا العربية

المؤلفات فى آيات الأحكام :

أحكام القرآن ، لابن العربى ، وهو القاضى أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ، المعروف بابن العربى الأندلسى الاشبيلى ، المتوفى سنة ٥٤٣ هـ .

والكيا الهراسى : أبو الحسن على بن محمد بن على الطبرى ، الملقب بعماد الدين البغدادى ، المتوفى سنة ٥٠٤ هـ .

والجصاص : أبو بكر أحمد بن على الرازى المشهور بالجصاص ، الحنفى ، المتوفى سنة ٣٧٠ هـ

وأحكام الكتاب المبين : للشنفكى ، على بن محمود الشنفكى ، من علماء القرن التاسع الهجرى.

والتفسيرات الأحمدية فى بيان الآيات الشرعية : لملاجيون ، أحمد الجونفورى .

و الأكليل فى استنباط التنزيل ، لجلال الدين السيوطى .

وهذه المؤلفات محفوظة بالمكتبة الأزهرية ، ونرحب بكل من يزور المكتبة للاطلاع عليها وعلى غيرها .

وهناك مؤلفات أخرى فى علم أحكام القرآن ، أهمها وأجلها كتاب الامام الشافعى رضى الله عنه ، ولم نعثر عليه فى دار الكتب المصرية ، ولا فى مكتبة الأزهر ، ولعل الله يوفقنا للعثور عليه ، فهو أول كتاب ألف فى هذا العلم .

محمد حسين

الطيرة

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يكاد يسلم منهن أحد : الطيرة والظن والحسد » .

فقال له قائل : فما المخرج منهن يارسول الله ؟

قال : « إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ . أى إذا تطيرت من شىء ساعة خروجك لحاجتك ، أو عزمك على عمل شىء فلا ترجع عما عزمت عليه وإذا ظننت شيئا فلا تعتبره حقا ، أى فلا تصدقه ، وإذا حسدت امرأ على شىء ناله فلا تبغ عليه بتمنى زوال نعمته .

وقد كانت العرب تتطير ككل الأمم فى عهد جاهليتها ومن شعرهم فى الطيرة :

وما صدقتك الطير يوم لقيتنا وما كان من دلاك فينا بخابر

هذا من شعر الجاهلية . وإنا لنعجب أن يقع فى شعر حسان بن ثابت ما يدل عليه فى الاسلام ، فقد قال :

ياليت شعرى وليت الطير تخبرنى ما كان بين على وابن عفانا

لتسمعن وشيكا فى ديارهم الله أكبر يا ثارات عثمانا

مكتبتنا العربية

المؤلفات فى آيات الأحكام :

أحكام القرآن ، لابن العربى ، وهو القاضى أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ، المعروف بابن العربى الأندلسى الاشبيلى ، المتوفى سنة ٥٤٣ هـ .

والكيا الهراسى : أبو الحسن على بن محمد بن على الطبرى ، الملقب بعماد الدين البغدادى ، المتوفى سنة ٥٠٤ هـ .

والجصاص : أبو بكر أحمد بن على الرازى المشهور بالجصاص ، الحنفى ، المتوفى سنة ٣٧٠ هـ

وأحكام الكتاب المبين : للشنفكى ، على بن محمود الشنفكى ، من علماء القرن التاسع الهجرى.

والتفسيرات الأحمدية فى بيان الآيات الشرعية : لملاجيون ، أحمد الجونفورى .

و الأكليل فى استنباط التنزيل ، لجلال الدين السيوطى .

وهذه المؤلفات محفوظة بالمكتبة الأزهرية ، ونرحب بكل من يزور المكتبة للاطلاع عليها وعلى غيرها .

وهناك مؤلفات أخرى فى علم أحكام القرآن ، أهمها وأجلها كتاب الامام الشافعى رضى الله عنه ، ولم نعثر عليه فى دار الكتب المصرية ، ولا فى مكتبة الأزهر ، ولعل الله يوفقنا للعثور عليه ، فهو أول كتاب ألف فى هذا العلم .

محمد حسين

الطيرة

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يكاد يسلم منهن أحد : الطيرة والظن والحسد » .

فقال له قائل : فما المخرج منهن يارسول الله ؟

قال : « إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ . أى إذا تطيرت من شىء ساعة خروجك لحاجتك ، أو عزمك على عمل شىء فلا ترجع عما عزمت عليه وإذا ظننت شيئا فلا تعتبره حقا ، أى فلا تصدقه ، وإذا حسدت امرأ على شىء ناله فلا تبغ عليه بتمنى زوال نعمته .

وقد كانت العرب تتطير ككل الأمم فى عهد جاهليتها ومن شعرهم فى الطيرة :

وما صدقتك الطير يوم لقيتنا وما كان من دلاك فينا بخابر

هذا من شعر الجاهلية . وإنا لنعجب أن يقع فى شعر حسان بن ثابت ما يدل عليه فى الاسلام ، فقد قال :

ياليت شعرى وليت الطير تخبرنى ما كان بين على وابن عفانا

لتسمعن وشيكا فى ديارهم الله أكبر يا ثارات عثمانا

مكتبتنا العربية

عرس فى بيت النبوة

جعل الله الزواج شرعة لبقاء النوع ، وتكثير النسل ، وضبط الشهوات ، وتعمير الحياة والتعاون على متاعبها .

ونحن حين نتواصى بالتماس العبرة والقدوة من ديننا وتاريخنا ، وأعمال رجالنا المسلمين العظماء أمام كل حادث ، كى يكون فى هذا الالتماس جمع بين الماضى والحاضر ، ووصل للخلف بالسلف ، وتقريب بين دنيانا ودنياهم ، أقول إننا حين نتواصى بذلك نجد أن عرسا أقيم فى بيت النبوة الكريم ، ما أجدره أن يكون تذكرة وعبرة ، ذلك هو زواج علىّ سيد شباب الاسلام بفاطمة الزهراء ، سيدة نساء العالمين ، وصغرى بنات الرسول الأمين .

نشأ علىّ فى بيت الرسول الكريم محاطا بالرعاية والعناية ، إذ كان النبى عطوفا عليه رحيما به ، حتى لقد يسر له سبيل العلم ، فعرف القراءة والكتابة ، وكانت خديجة زوج النبى بارة به ، تكرمه وتغتبط لمرآه ؛ وقد كان بجوار علىّ فاطمة ، اجتمعا فى بيت النبوة وهما صبيان صغيران ، يلعبان معا ويختصمان معا ؛ ثم وجدا فى تقارب السن ، وفى وحدة الحياة ، وفى وحدة المكان ، وفى عطف الأبوة .

وفى السنة الثانية للهجرة كانت سن علىّ إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ، وكان عمر فاطمة أقل من ذلك بعامين أو نحوهما ، فحدث أن أقبل كل من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما يخطبان فاطمة من أبيها ، كل لنفسه ، فسكت النبى ولم يرد عليهما بشىء ، فانطلقا إلى على وأخبراه بما حدث ، ونصحاه بخطبتها إذ هى تصلح له من غيرها ، لقرابته منها ، وخلوه من النساء .

قال : فنبهانى إلى أمر كنت عنه غافلا ، فقمت أجر ردائى « فرحا بما تنبهت له من خطبة خير النساء » حتى أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله أتزوجنى فاطمة ؟ قال : وهل عندك شىء يصلح مهرا لها ؟ فقال : لا ، فقال النبى : وأين درعك الثقيلة التى أعطيتها لك من مغانم بدر ؟ فقال : عندى يا رسول الله فرسى ودرعى ؛ فأجابه النبى : أما فرسك فلا بد لك منها فى الحروب ، وأما درعك الثقيلة فبعها لتجعل من ثمنها مهرا لزوجتك ؛ ثم قال له (كما فى رواية النسائى) : مرحبا وأهلا !

فخرج علىّ إلى رهط من الأنصار كانوا ينتظرونه ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : ما أدرى غير أنه قال لى مرحبا وأهلا . قالوا : يكفيك من رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدهما ، فكيف وقد أعطاك الأهل وأعطاك الرحب ، لا بد أنه سيزوجها لك !

مكتبتنا العربية

وذهب على يهيء الصداق ، فباع درعه الى عثمان بن عفان ، بأربعمائة وثمانين درهما ، وأعدها مهراً لفاطمة التي لا تقدر بمال ، ثم رد عثمان الدرع الى على هدية منه بعد ذلك ، فلما علم النبي بما فعل عثمان دعا له بدعوات طيبات .

واقتصر النبي على قوله لعلى : مرحبا وأهلا ، ولم يعطه كلمة فاصلة فى الموضوع ، لأنه أراد أن يعرف أمر ربه ؛ قال أنس : بينما أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ غشيه الوحى ، فلما سرى عنه قال : إن ربى أمرنى أن أزوج فاطمة من على ، فانطلق فادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وجماعة من المهاجرين والأنصار ، وكان على غائبا ، فلما اجتمعوا وأخذوا مجالسهم ، أنبأهم رسول الله بالنبأ ، وخطب فيهم عن ذلك خطبة بليغة وجيزة ، قال فيها بعد حمد الله :

« إن الله تبارك اسمه وتعالت عظمته ، جعل المصاهرة سببا لاحقا (لازما) وأمرا مفترضا أو شج به الأرحام ، وألزم به الأنام ، فقال عز من قائل : « وهو الذى خلق من الماء بشرا ، فجعله نسبا وصهرا » ، فأمر الله يجرى الى قضائه ، وقضاؤه يجرى الى قدره ، ولكل قضاء قدر ، ولكل قدر أجل ، ولكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . ثم إن الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من على بن أبى طالب ، فاشهدوا أنى قد زوجته على أربعمائة مثقال فضة ، إن رضى بذلك على . »

وبعد أن انتهى من خطبته ، دعا النبي للعروسين فقال : جمع الله شملهما ، وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ، ومعادن الحكمة ، وأمن الأمة .

ثم أمر صلى الله عليه وسلم بطبق من بلح فوضع بينهم ، وقال للقوم : انتهبوا منه ، فجعلوا يأخذون ويأكلون ؛ ثم دخل على بعد ذلك عليهم ، فتبسم رسول الله فى وجهه تبشيرا له بتحقيق أمله ، وقال له : إن الله عز وجل أمرنى أن أزوجك فاطمة على أربعمائة مثقال فضة . أرضيت بذلك ؟ فقال : قد رضيت بذلك يا رسول الله . فقال عليه الصلاة والسلام : جمع الله شملكما ، وبارك لكما ، وبارك فيكما ، وبارك عليكما ، وأعز جدكما ، وأخرج منكما الكثير الطيب .

ثم إن رسول الله أمر باعداد الجهاز المتواضع لابنته ، فأعطى بلالا ثلث المهر ليشترى به طيبا ، ثم أحضروا لها سريرا مشروطا بشرائط من خوص مفتول ، جعلوا فراشه جلد كبش وغطاءه قطيفة ، وأربع وسائد حشيت اثنتان منهما بصوف واثنتان بليف ، وبساطا له خمل رقيق ، وما لابد للبيت منه ، وهذا كل ما كان فى جهاز سيدة نساء العالمين وبطل الاسلام المظفر .

مكتبتنا العربية

وجاءت ليلة العرس ، وكان على فقيراً فى ماله ، لا يرى حوله بيضاء ولا صفراء ، وعاد على فرهن درعه عند يهودى ، وأعد بذلك جانبا من الشعير والتمر والسمن واللبن ، وأضافه الى ما أهداه بعضهم اليه من اللحم والذرة ، وأمر باعداد الوليمة للعرس الاسلامى الذى يحتفل فيه بالمعانى والمقاصد ، قبل العناية بالماديات والمظاهر .

ومع كل هذا التواضع فى النفقة فقد قالت أسماء : لقد أولم علىّ على فاطمة فما كانت وليمة فى ذلك الزمان أفضل من وليمته .

أعدت الوليمة ، وأكل منها الناس ، ثم زفت فاطمة فانتقلت الى بيت على مع أم أيمن الحبشية مولاة رسول الله عليه السلام ، وكان النبي قد أوصى عليا أن ينتظراه حتى يحضر بعد العشاء ، فجلست فاطمة فى جانب من البيت ، وجلس على فى الجانب الآخر ، ومعهما أم أيمن ، فلما صلى النبي العشاء الآخرة جاءهم ، فلما دخل قال لأم أيمن : أهنا أخى ؟ فأجابته مداعبة : أخوك وقد زوجته ابنتك ! قال : نعم ، هو منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى . (يعنى أنه أخى فى الدين والمحبة لا فى النسب والرضاع) . ثم قال لفاطمة : ائتنى بماء ، فقامت امتثالا لأمره تتعثر فى مرطها من الحياء ، فأتته بقدح فيه ماء ، فأخذ منه بفمه ثم سكبه فى القدح وقال لها : تقدمى ، فتقدمت ، فرش من الماء بين ثديها وعلى رأسها وقال : اللهم إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . ثم قال لها : أدبرى ، فأدبرت ، فصب من الماء بين كتفيها ، ثم فعل مثل ذلك مع على ، وعوذه بما سبق . وقيل عوذه بقل هو الله أحد والمعوذتين ، وقال : اللهم بارك فيهما ، وبارك عليهما ، وبارك لهما فى نسلهما . ثم قال لعلى : ادخل على أهلك باسم الله والبركة .

ولكن عليا رجل فقير ، وقد شاركته فاطمة فى حياته القاسية ، وتحملت معه أعباء العيش المرهقة . فهل تأنف لأنها سيدة النساء وبنت الرسول من هذه الحياة المتواضعة ؟ . أتتكبر عن العمل والسعى ؟ أتتعالى عن تنظيف البيت وتهيئة الطعام وطحن الشعير وما الى ذلك من مهن ؟ لا ، فليس الى ذلك سبيل ، فهى بنت محمد الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه ليكون متمما لمكارم الأخلاق ، وجعله هاديا متواضعا ، ولم يجعله جبارا متكبرا ، عن ابن أعبد قال : قال على عليه السلام : ألا أخبرك عنى وعن فاطمة ؟ كانت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكرم أهله عليه ، وكانت زوجتى ، فجرت بالرحى حتى أثرت الرحى بيدها ، واستقت بالقربة حتى أثرت القربة بنحرها ، وقمّت البيت حتى اغبرت ثيابها ، وأوقدت تحت القدر حتى دنست ثيابها ، وأصابها من ذلك ضر !

بل ها هو ذا العمل يرهق عليا فيقول لفاطمة : لقد عملت حتى اشتكيت صدرى ، وقد جاء الله أباك بسبى ، فاذهبى إليه فاطلبى منه خادما يخدمنا ، فقالت : وأنا والله لقد طحنت

مكتبتنا العربية

حتى تورمت يداى ! فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها : ما جاء بك ، وما حاجتك يا بنيتى ؟ قالت : جئت لأسلم عليك . واستحيت أن تسأله ورجعت ، فقال لها على : ما فعلت ؟ قالت : استحييت أن أسأله ، فأتياه جميعا ، فقال على : يا رسول الله لقد سنوت حتى اشتكيت صدرى ، وقالت فاطمة : لقد طحنت حتى مجلت يداى ، وقد جاءك الله عز وجل بسبي وسعة فأعطنا خادما . فقال : والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم ، بل هم أولى منكما ، فرجعا .

أمام معاملة النبي لابنته فى هذا الموقف ، نراه فى حين آخر يرعى لها كرامتها ، ويحرص على سلامة بيتها ، ويمانع فيما يسبب لها الأسى والألم ؛ فقد حدث بعد زواجها بحين من الزمان أن فكر على فى زواج جويرية بنت أبى جهل ، فسمعت بذلك فاطمة ، فأتت أباها وقالت : يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك ، وهذا على خاطب بنت أبى جهل . فقام عليه السلام فوق المنبر وتشهد ثم قال : أما بعد فإن فاطمة بضعة منى ، فمن أغضبها فقد أغضبنى وقد بلغنى أن ابن أبى طالب يريد زواج بنت أبى جهل ، وإنى لا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن ، والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدا !

وكانت هذه الغضبة المحمدية كافية لصد على عن هذه الفكرة ، وحفظت لفاطمة بيتها وكرامتها ، وعرفتها أن أباها لا يهمل حقوقها .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

* * *

هذه قصة زواج على بفاطمة ، ومنها ندرك أن هناك أخلاقا إسلامية كانت مرعية من النبي وأصحابه فى مثل هذه المواقف ، ومن تلك الأخلاق : الأدب فى الخطبة ، والرد الجميل من المسئول ، والاعتدال فى المهور ، والاقتصاد فى الجهاز والولائم ، وإرادة وجه الله فى كل عمل ، وطلب التوفيق والبركة من الله فى كل شيء ، والعشرة الطيبة بين الزوج وزوجته ، والحرص على سلامة البيت وكيانه ، وغير ذلك من الأخلاق !

فما أجدرنا أن نأخذ أنفسنا بهذه الخصال النبيلة التى كانت لأولئك الأسلاف العظام ، حتى نعمر الأرض كما عمروها ، وحتى نسعد كما سعدوا بحياة العزة والسؤدد ، وعيش المجد والهناء !

أحمد الشرباصى
خريج كلية اللغة العربية

مكتبتنا العربية

الاطوار الفنية

لـكلمة « الأدب » فى عهود العروبة

أرى لزاما على ، وقد أخذت على عاتقى دراسة بعض النواحى الأدبية ، أن أميط اللثام عن وجه كلمة « الأدب » وأورى زند البحث فيها حتى تظهر على حقيقتها فى غير لبس أو التواء ، فأبين المعنى الأول الذى تشربته هذه الـكلمة ، ثم أعرج على الأطوار التى اصطبغت فيها بألوان متباينة.

يرى بعض جهابذة الأدب أن هذه الـكلمة ليست من غراس العصر الجاهلى ، وإنما نبتت وتفتحت أكمامها فى رياض العصر الاسلامى ؛ ويرى آخرون أن لها وشائج قوية تربطها بالجاهلية وأنها وردت فى حـديث عتبة بن أبى ربيعة ، وكانت ابنته هند ألحت عليه أن لا يزوجها من أحد حتى يعرض أمره عليها ؛ قال عتبة كما رواه أبو على القالى فى أماليه :

« إنه قـد خطبك رجـلان ؛ أما الأول ففى الشرف الصميم ، وأما الآخر ففى الحسب الحسيب والرأى الأريب ، بدر أرومته ، وعز عشيرته ، يؤدب أهله ولا يؤدبونه . . . فقالت هند : أما الأول فسيد مضياع لـكريمته ... وأما الآخر فبعل الحرة الـكريمة ، إنى لأخلاق هذا لوامقة ، وإنى له لموافقة ، وإنى لآخذة بأدب البعل مع لزوم قبتى وقلة تلفتى » .

وقد جاءت أيضا فى كتاب النعمان بن المنذر الى كسرى : « وقد أوفدت أيها الملك رهطا من العرب لهم فضل فى أحسابهم وعقولهم وآدابهم » .

كما جاءت فى حديث علقمة بن علاثة بين يدى كسرى : « فليس من حضرك منابأ فضل ممن غاب عنك ، بل لو قست كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا لوجدت له فى آبائه أندادا وأكفاء ، كلهم الى الفضل منسوب وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب معروف » .

ففى هذا الـكلام الذى لا أرى تعلة للارتياب فى صحته أو الشك فى صدق روايته ، نرى أن المسحة التى تهيمن على الـكلمة هى التهذيب والخلق القويم ، وهذا المعنى نلمسه جليا فى قوله صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » مما ينبىء بأن لهذه الـكلمة عرقا فى الجاهلية ونسبا ترجع اليه ، إذ لم يثبت أنها من غراس العصر الاسلامى . على أن إغفال هذه الـكلمة فى القرآن لا ينهض دليلا على أنها لم تشد فى ربوع العصر الجاهلى ، لأن القرآن ، وإن كان يحكى أسلوب الجاهلية وألفاظها ، لم يستوعب كل ذلك وإنما جاء أكثره بلهجة قريش وأخذ اليسير منه بحظ ضئيل من اللهجات الأخرى ، فليس غريبا أن تـكون كلمة « أدب » من لهجة قريش أو غيرها ، ولـكن القرآن أغفلها ، فليس القرآن قاموسا لسائر لهجات العرب ولغاتهم ، وليس القرآن معجما لـكل ما نبست به شفاه العروبة من فصيح وغير فصيح .

وقد نرى من يقول : أليس من الجائز أن تكون كلمة « الأدب » دخيلة على لغة الضاد ؟ فنقول : إن جرس الـكلمة وصيغتها ينبئان بعراقتها فى العربية ، وأنها واسطة العقد من ألفاظها فان لها أضرابا ونظائر ينهلن جميعا من معين واحد فى اللفظ والمعنى ، مثل دأب وأبد وبدأ . ثم إن الـكلمة لم ترد فى العبرية والسريانية حتى يحتمل أنها أخذت منهما .

مكتبتنا العربية

على أن العرب فى الحقبة التى ظهرت فيها هـذه الـكلمة وتداولتها أفواههم ، كانوا بمعزل تام عما يتاخمهم من الأمم التى أفادوا منها فى ضحى الاسلام حين امتد سلطانهم وخفق لواؤهم فوق آطام الدول الأخرى .

ومهما يكن من شىء فانى لا أتبين وجها لإبعاد كلمة « الأدب » من حظيرة الجاهلية وإنما أرى أنها من بنات الفكر الجاهلى وثمرة من ثماره ، وأنه كان يراد منها فى ذلك العهد وفى العصر الاسلامى التهذيب والخلق العظيم .

ولعل الجذع الذى تفرعت منه أغصان هـذه الـكلمة فيما بعد هو الأدب بمعنى الظرف ، ثم انتقل منه الى الأدب بمعنى الدعوة الى الطعام ، لأن الظرف يحمل المرء على التحلى بالفضائل والتزيى بالمـكارم ، ولو أننا استعرضنا مخايل العرب وشمائلهم الخالدة لألفينا أن الـكرم أسمى ما تغنى به العرب وتمدحوا به ، أليست البادية مجدبة يحيا أهلها حياة الشظف والخشونة ويجتاح الاملاق جمهرة سكانها ؟ لهذا كانت الحاجة ماسة الى البذل والندى ، ولهذا غدا القِرى عنوان الخلق الجميل والهمة الشماء .

ولهذا كان من المعقول أن تتدرج الـكلمة من الظرف الى إقامة الولائم ، ولما كان من أخص خـلائق السمح أن يمتع الضيفان بالأحاديث العذبة ويقص عليهم الأنباء المسلية عنوانا على الغبطة والارتياح للقِراء ، مست الحاجة الى أن يكون على قسط من الفصاحة وذرابة اللسان حتى يتسنى له أن يعرض لشجون الحديث بما يثلج صدورهم ويرفه عن مشاعرهم ، وليس من سبيل الى فصاحة اللسان وقوة البيان إلا التأدب بالمأثور من نثر العرب وشعرهم ، وإذن أصبح من أخص سمات الجواد اللسن وحسن البيان ، ولهـذا تقمصت كلمة الأدب ثوبا جديدا وغدا الهدف الذى ترمى إليه هو المأثور من النثر والشعر ، أما الظرف ورقة الشمائل فقد أسدل عليه الستار وإن كان أريجه يعبق نادرا ، وقد تدثرت هذا المعنى طيلة العصر الجاهلى والعصر الاسلامى ، فان هذين العصرين لم تزدهر ربوعهما بالعلوم الجمة حتى نزعم أن الـكلمة قد اتسع أفقها ، وترامت أطرافها ، وغـدت خليقة أن يراد منها ما هو أعمق من ذلك وأبعد غورا ، لأن العصر الجاهلى كان قفرا من العلوم ، وفى العصر الاسلامى انصرف المسلمون الأولون الى توطيد أركان دولتهم ومجاهدة الأعداء عن العلوم والفنون .

فلما كان العصر الأموى ، وازدهرت النهضة العلمية والأدبية ، وارتقت الحضارة الاسلامية واتسعت الفتوحات ، ووقفوا على ثقافات الأمم ومعارفها ، وشعروا بحاجاتهم الى العلوم والآداب يشدون بها أزر ملـكهم ، أعاروها عناية جلى ، فشجعوا العلماء والأدباء على التأليف والتدوين ، وبسطوا لهم أكفهم ، والتمسوا المؤدبين لأبنائهم يؤدبونهم بالعلوم المختلفة ، وتمخضت النهضة عن علوم الأدب واللسان والتاريخ والانساب والتشريع ، وانضوى كل ذلك تحت لواء الأدب ، ومن تلك الآونة تضخمت كلمة « أدب » وترامت أطرافها وأصبح يراد منها « الأخذ من كل فن بطرف » ، وهذا النطاق لم تتعده فى صدر العصر العباسى ، لأن فترة التحول بين العصرين

مكتبتنا العربية

لا تسمح بصبغ العلوم والآداب صبغة جديدة ، فان ذلك يحتاج الى وقت طويل ، تتهيأ فيه النفوس لقبول النظريات الجديدة فى العلم والأدب .

وفى القرن الثالث بحثت العلوم بحثا دقيقا وانسلخت عن الأدب ، وعرف جها بذتها بالعلماء ، وأخذت كلمة الأدب تنحرف سريعا ، أو قل انحرفت وتجردت من دثرها التى عهدت بها فى العصر الأموى ، وأضحت لا تطلق إلا على ثمار القرائح ونتاج الأفكار من مأثور النثر والشعر مما تلمسه فى كتبهما .

إذن فالأدب فى القرن الثالث تقمص أو كاد يتقمص ثوبه الذى كان يرتديه فى القرن الأول وهو النثر والشعر ، وما يمت اليهما من الأخبار والأيام والأنساب وبعض العلوم اللسانية والشرعية ، بيد أن القرن الثالث أربى فاكتنف بين جوانحه النقد والنثر اللذين كان العصر العباسى حامل لوائهما . أما النقد فلما كانت بحوثه تضرب فى صميم الأدب ، فقد ظل منطويا تحت لواء الأدب طوال القرن الثالث والرابع ، وعلى الرغم من أن كتبا دبجت فى هذين العصرين فان أغلبها ـ وخاصة مؤلفات القرن الثالث ـ جاء ملاحظات موزعة غير منظمة . وفى القرن الرابع ألفت الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى ، والوساطة بين المتنبى وخصومه ، ومؤلفات أخرى أتيح بها للنقد أن يقيم بعض دعائم استقلاله ، ويذلل السبيل لانبلاج فجر البلاغة ، فلم يتبلج إصباح القرن الخامس حتى ألفينا من علوم البلاغة دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة .

وإذن فالنقد والبلاغة انسلخا عن الأدب وغدا الأدب مقصورا على مأثور النثر والشعر .

وملاك القول : أن كلمة الأدب كان يراد منها فى عرف الأدباء فى العصر الجاهلى والعصر الاسلامى المأثور من النثر والشعر ، فلما كان العصر الأموى وفجر العصر العباسى تدثرت مروطا أخرى وفقا للمقتضيات ، فأصبح الهدف الذى ترمى اليه هو المأثور من النثر والشعر وبعض العلوم اللسانية والشرعية ، ومن ثم قالوا « الأدب : الأخذ من كل فن بطرف » . وفى القرن الثالث والرابع والخامس دقت كلمة الأدب وضاق أفقها حتى غدت قصرا على النثر والشعر الممتازين.

أما فى العصر الحديث ، عصر النور والعرفان ، فأرى أن الأدب أفسح ميدانا وأعمق غورا وأبعد شأوا مما أسلفنا ؛ أرى أن الأدب فى القرن العشرين « عقد ينتظم سائر الثقافات الأدبية التى تصقل الأذهان وتقوم اللسان وترهف المشاعر وتنفث الدر الساحر » فان ازدهار النهضة الأدبية فى هذا العصر واتصال الشرق بالغرب وظهور ألوان وصور جديدة فى الأدب ، واشتداد روح المنافسة والمباراة بين الشعوب ، يلزم عشاق الأدب أن يرتضعوا أفاويق الأدب المختلفة ، ويمتحوا من معين الثقافات التى تهذب نفوسهم ، وتفتق مداركهم ، وتنقى أذواقهم ، وتكسيهم الفصاحة وحسن البيان ، وتكفل لهم جمال العرض ودقة التصوير ، وبذلك تزدهر رياض الأدب ، وتخصب ربوعه ، وتبسم وروده ، ويعبق أريجه ؟

سليمان الدغالى

خريج تخصص المادة والتدريس

مكتبتنا العربية

٥ — تحقيقات أدبية

مالك بن الريب

— ٢ —

ونحن لم نعمد الى ترجمة هـذا الشاعر ، وليس هدفنا ، وإنما وضعنا له رسما تخطيطيا حتى إذا أخذنا فى الكشف عن مآتى هذه القصيدة التى نسبت اليه ، سرنا على هدى وبصيرة مترسمين المعالم الواضحة لشخصيته ، واستطاع القارئ ، كذلك ، أن يأخـذ مما نقول ويدع واثقا مطمئنا .

قالوا إنه رثى بهذه القصيدة نفسه ، وليس هـو أول من بكى نفسه ولا آخرهم ، وإنما هو من جماعة وسموا فى الأدب بهـذه السمة ، ولـكن واحدا منهم لم يرو له مثل هذه القصيدة ولا قرابتها ، والذى صح عندى أن ابن الريب ليس أبا بجدة هذه المرثية الـكبرى ، وما من شأنى أن أسوق القول على رسيلاته وإنما أعتصم بالدليل والبرهان .

(١) نمعن فى الظروف التى قيلت فيها القصيدة فنجدها مضطربة أشد الاضطراب ؛ فقد رأينا مارواه القالى من أنه طعن فسقط فمات ، أو مرض ، أو مات فرثته الجان . وفى العقد أنه أراد أن يلبس خفه فإذا بأفعى فى داخلها فلسعته ، فلما أحس بالموت استلقى على قفاه ثم أنشأ يقول ... وبدهى أن الطعِين الذى لم تمهله الطعنة ، أو الملدوغ الذى سرى السم فى جسده لا يحبر قصيدة تبلغ الستين بيتا ، وهى ، بعد ، من أجود الشعر ، وليس له شعر يشابهها ، ولم يؤثر عنه أنه كان مكثرا يريد القوافى فتأتيه أرسالا سهلة مهلة ، فلم يبق إلا أنه مرض فلما أيس من الشفاء قال منها شيئا . والذى لا يقبل فى هذا الموضوع ما رواه اليزيدى فى نوادره قال : رثى مالك بن الريب نفسه بقصيدته هذه قبل موته بسنة . وعُوّار هذه الرواية ما فى القصيدة من نحو قوله :

ولما تراءت عند (مرو) منيتى ... وخل بها جسمى وحانت وفاتيا
أقـول لأصحابى ارفعـونى فانه ... يقـر بعينى أنْ سهيل بدا ليا
وقوله : فياصاحبىّ رحلى دنا الموت فانزلا ... برابية إنى مقيم لياليا
وقوله : صريع على أيدى الرجال بقفرة ... يسوون لحدى حيث حم قضائيا

وفى النفس شىء من أبى على ، فكيف مر به كل هـذا دون أن يعلق عليه بشىء ؟ وهل خفى عليه ، وهـو العالم اللغوى ، أن يزيف — على الأقل — خرافة الجن ؟ وكيف يرى فى ضمائر التكلم ؟ ولو رثاه الجان لـكان لإكرامهم له ، وتألمهم لغربتـه دلائل على التفجع والتألم فى أسلوب القصيدة .

مكتبتنا العربية

(٢) حرص مالك فى شعره أن ينوه بابنته فهو يقول :

ولقد قلت لا بنتى وهى تبكى بدخيل الهموم قلبا كئيبا
حذر الحتف أن يصيب أباها ويلاقى فى غير أهل شعوبا
اسكتى قد حززت بالدمع قلبى طالما حزّ دمعكن القلوبا

ولما أحس بالموت قال يذكرها :

تسائل (شهلة) فقتالها وتسأل عن مالك ما فعل ؟
ثوى مالك ببلاد العدو (م) تسفّ عليه رياح الجبل
لذلك (شهلة) جهزتنى وقد حال دون الإياب الأجل

ويقول : تقول ابنتى لما رأت طول رحلتى سفارك هذا تاركى لا أبا ليا

ويظهر أن شهلة هذه ماتت وهو بخراسان ، يدل على ذلك قول الرواة : إنه لم يعقب ، وقوله فى قصيدته :

تذكرت من يبكى علىّ فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقر محبوك بحر عنانه الى الحوض لم يترك له الدهر ساقيا

وفى بعض شعره ما يدل على أنه فقد أباه .

ألا رب يوم (ريب) لو كنت شاهدا لهالك ذكرى عند معمعة الحرب

ولم يلُح فى حياته ذو قرابة له إلا بنته ، ولكن القصيدة تجعل له أسرة طويلة عريضة ؛ تجعل له إخوة وبنين وبنات وزوجا وأبوين :

فيا راكبا إما عرضت فبلغاً بنى مازن والريب ألا تلاقيا

يريد وبنى الريب وهم إخوته ، وقد نفى أن يكون هناك أحد يبكى عليه فى بعض هذه القصيدة عينها :

فلله درى يوم أترك طائما بنىّ بأعلى الرقمتين وماليا
ودر كبيرى اللذين كلاهما علىّ شفيق ناصح لو دعانيا

ولعل الواضع يريد بكبيريه (أبويه) كما أراد (أمه) بقوله فى البيت الآخر :

وبالرمل منا نسوة لو شهدننى بكين وفدين الطبيب المداويا
عجوز وأختاى اللتان أصيبتا بموتى وبنت لى تهيج البواكيا

وهذه رواية العقد فى البيت الثانى ، وهو بيت ركيك جدا ليس من شاكلة هذه المطولة .

والرواية الأخرى :

فمنهن أمى وابنتاى وخالتى وباكية أخرى تهيج البواكيا

(٣) وأظن أنه يريد (بالباكية الأخرى) زوجه ، ولعلها هى التى ذكرها فى قوله :

فيا ليت شعرى هل بكت أم مالك كما كنت لو عالوا نعيك باكيا

مكتبتنا العربية

والعجب أنه يطلب اليها أن تكثر من زيارة قبره ، والواضع يحمق ويغفل هنا ، وإلا فكيف تعتاد هذه الراتعة فى بادية تميم قبرا هناك فى خراسان ؟ !

إذا مت فاعتادى القبور وسلمى عليهن أسقيت السحاب الغواديا
رهينة أحجار وترب تضمنت قرارتها منى العظام البواليا

(٤) ونرجع نُفتش فى حياة مالك وأخباره عن ذات يده ، فنجده يبرر تلصصه بالعجز عن المعالى ومكافأة الاخوان ومساواة ذوى المروءات ، فإذا جئنا الى القصيدة وجدناه ثريا مترفا .

يقولون لا تبعد وهم يدفنونني وأين مكان البعد إلا مكانيا ؟ !
غداة غد يالهف نفسى على غد إذا أدلجوا عنى وأصبحت ثاويا
وأصبح مالى من طريف وتالد لغيرى وكان المال بالأمس ماليا

ويقول : ولن يعدم الوالون بثا يصيبهم ولن يعدم الميراث منى الموالیا

(٥) وأنت تقرأ القصيدة التى يرثى بها نفسه ويذكر مرضه ، فلا تجد فيها شيئا عن هذا الحادث الذى وقع له ، ولا كيف وقع ، مع أن الذهن العربى ذهن واقعى ، فهو إذا عمد الى شعر كان أقرب شىء إليه هذا الذى دفعه الى قوله ، ونحن نتلو القصيدة مرات ومرات فلا ندرى ما الذى أصابه ، ولا كيف نزل به الموت !

(٦) فاذا وضعنا أشعار مالك ، وقد ذكرت أكثرها بجانب هذه القصيدة ، فقدنا التناسب فى الروح والأسلوب والمعانى ، فهذه الديباجة الحسنة والرقة الزائدة والمعانى البديعة لم تعرف فيما قرأت له من أشعار .

(٧) وأخيرا يطالعنا صاحب الأغانى بقول الراوية أبى عبيدة : الذى قاله ثلاثة عشر بيتا والباقى ولده الناس عليه .

ويبدو أن هذه الأبيات الثلاثة عشر لم تكن رثاء لنفسه (وهذه هى مزية القصيدة وموضع شهرتها فى الأدب) وإنما قالها فى التشوق الى وطنه وندمه على أن ترك حياته الحرة الطليقة ومرابعه الحبيبة الى حيث يحارب ويستشهد .

فان أنج من بابى خراسان لا أعد إليها وإن منيتمونى الأمانيا
إن الله يرجعنى من الغزو لا أرى وإن قل مالى طالبا ما ورائيا

فهذا يقوله رجل سليم معافى يأمل أن يعود الى وطنه .

أما الذى تخونته الحمى ، أو ضربت فيه العقرب بسمها ، أو حطمته طعنة نجلاء ، فانما يرثى نفسه بالبيتين أو الأبيات . وهذا ما أثر عن هؤلاء الذين رثوا أنفسهم ؛ لم يكونوا يتجاوزون المقطوعة الصغيرة الى المطولة الكبيرة ، وللرواة فيما يضعون أضاحيك وألاعيب ؟

على محمد حسن
مدرس الأدب العربى بمعهد قنا